ر. د. ج. سيمونز

لون البشرة

وأثره في العلاقات الإنسانية

ترجمة

علي عزت الأنصاري

الكتاب: لون البشرة وأثره في العلاقات الإنسانية

الكاتب: ر. د. ج. سيمونز

ترجمة: علي عزت الأنصاري

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

سيمونز ، ر. د. ج.

لون البشرة وأثره في العلاقات الإنسانية / ر. د. ج. سيمونز ،

ترجمة: علي عزت الأنصاري

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٤١ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٥٨٢ / ٢٠٢٠

لون البشرة
وأثره في العلاقات الإنسانية



هذه ترجمة كتاب

The Colour of the Skin in Human Relations

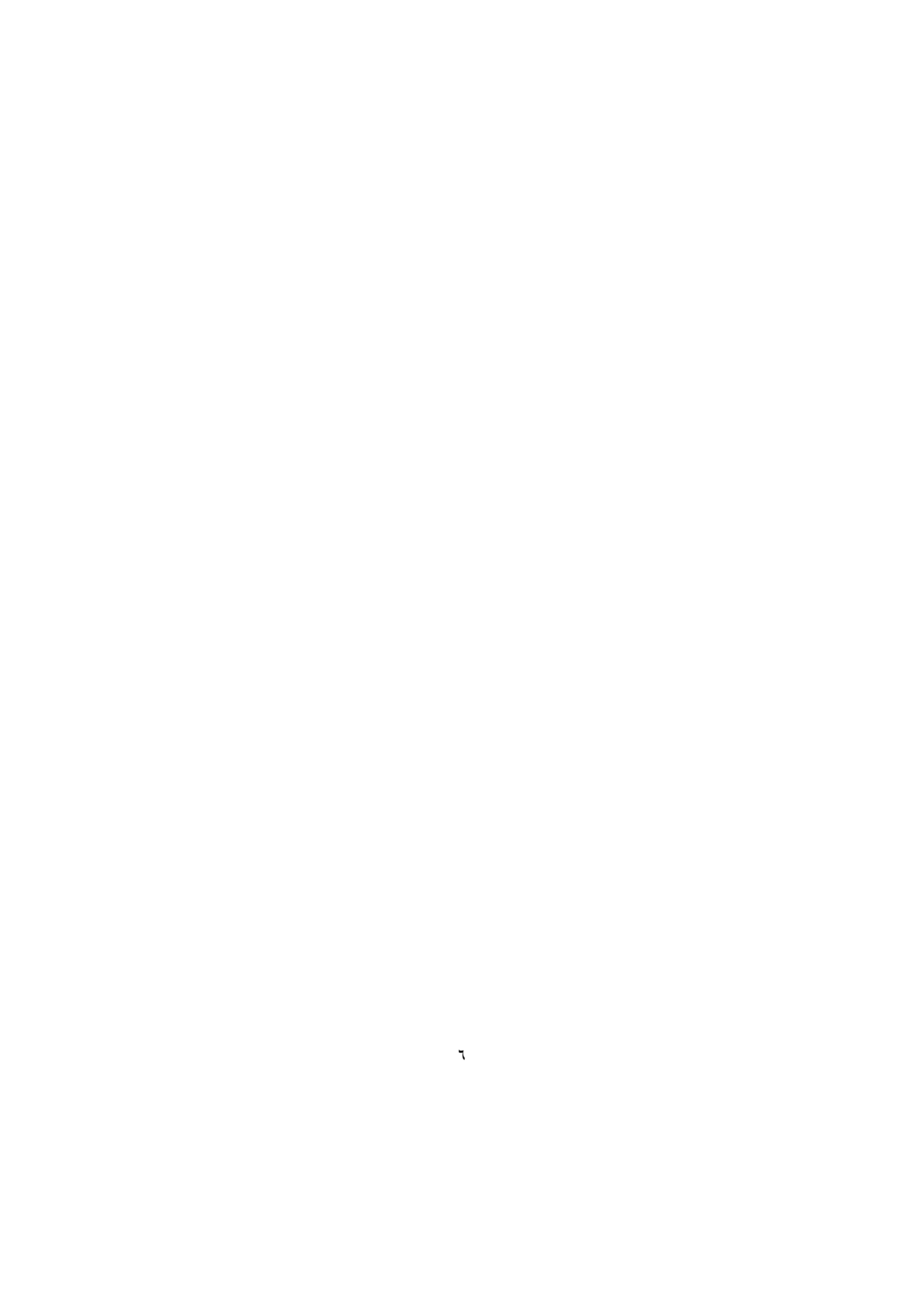
by R. D. G. Simons

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب بحث إحدى خصائص لون البشرة الآدمية، التي لم يقدر أهميتها إلا قليل من الناس، ونعني بها تقسيم البشر على أساس اللون. من أجل ذلك كان للون أهمية كبرى في العلاقات البشرية، التي نشأت عنها المسألة العنصرية. وهكذا كان ما في اللون البشري من فتنة سبباً في كثير من المتاعب بسبب سوء الفهم أو سوء التصرف.

هذا ولو أن الكاتب لا يدعي أنه أنصف هذه النعمة الطبيعية كل الإنصاف، إلا إنه يرجو أن يكون قد أسهم في وضعها في مكانها الصحيح.

(ر. س)



تقديم

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) "سورة الروم: ٢٢".

من خصائص القرآن الكريم أنه كلما ذكر فيه شيء على أنه من آيات الله جاء هذا مصحوبا بما يحض على البحث والتفكر في الظاهرة التي تضمنها النص. وفي هذه الآية التي صدرنا بها هذا الكلام ذكر خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان على أنها من آيات الله ويؤكد في ختامها أهمية هذه الآيات التي يقدرها العلماء حق قدرها.

وقد قام الدكتور "سيمونز" بنصيب طيب في بيان الدور الذي يؤديه اللون في العلاقات البشرية ببحث هذا الموضوع ونشر نتيجة هذا البحث في كتاب مطبوع وقد عالج فيه دور لون البشرة في تقسيم الجنس البشري إلى مجموعات وهو ما يعرف عادة بالمسألة العنصرية.

وكانت دراسة الدكتور "سيمونز" واسعة الأفق وتناولت كل جوانب المسألة. ولو أن اهتمامه ببحث المسألة في أول الأمر يرجع إلى اشتغاله بالأمراض الجلدية وعلاجها إلا أنه كشف جميع جوانب الموضوع النفسية والسكانية والاجتماعية حتى الدينية.

وكانت دراسته لهذا الموضوع في الوقت الذي هبت فيه أفريقية كلها في الشمال والجنوب والشرق والغرب وظهرت فيه فورتها في كل جوانب العلاقات البشرية التي لابد من وجود جانب الاختلاف العنصري وجانب

اللون في كل منها. وقد اطلع على عدة أراء وكثير من البحوث في هذا الموضوع وكانت لجهوده قيمة كبرى لدى من يهمهم حسن التفاهم وتوكيد الصلات الطيبة بين الجماعات العديدة في الجنس البشري.

إن كل يوم يمر يؤكد لنا عظيم الحاجة إلى دراسة هذه المسألة وتنفيذ ما تمليه هذه الدراسة من تغيير الأوضاع العقلية والخلقية والدينية فضلا عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية إذا أريد للجنس البشري أن يسير قدما إلى الأمام وأن يبلغ الهدف الذي خلق من أجله.

أما عن نصيب الديانات في حل مسألة اللون فموقف الإسلام منها واضح وبسيط[١] قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) "سورة الحجرات: **١٣**"

وهكذا قرر الإسلام في وضوح أن الانقسام إلى هذه الفرق العديدة من شعوب وقبائل ذو غرض مفيد في المجال الاجتماعي ولكنه لا يجعل لقسم ميزة على سائر الأقسام ولا يبرر التفرقة بينهم ولا يبلغ الشرف الرفيع منهم إلا من سار على الصراط المستقيم.

والحق أن المسلمين لم يلتزموا دائما ذلك المستوى السامي من التفكير ولكن الحق أيضاً أنهم كانوا في جميع العهود التاريخية أقل الناس اهتماما بلون البشرة، ولهذا لم تنشأ بينهم تلك المشكلات أو الصعاب التي كان الناس يلاقونها في هذا الميدان ولم يكن لها من أثر بينهم.

---

(١) إن الإسلام لا يفاضل بين الناس على أساس اللون.

وما العمل؟.. يرى الدكتور "سيمونز" أن الصداقة أفضل الحلول– تلك الصداقة المؤسسة على المساواة مع حرية الاختيار احتراما للشخصية الإنسانية وضمانا للإبقاء عليها. ويجب أن نذكر أنه متى تغلغلت روح الصداقة بين الجماعات الإنسانية المختلفة سيكون الطريق معبدا لحل كثير من الخلافات الاجتماعية وما تشمله من خلافات الأجناس. إن الصداقة الحقيقية لا تنشأ إلا عن تفاهم عميق وشعور طيب بين الصديقين. وهي لا تقتضي المساواة فحسب، بل تتضح بجلاء في مستوى المساواة التامة– ذلك المستوى الذي لا ينظر إلى لون الإنسان إلا كما ينظر إلى الثوب الذي يلبسه.

والموقف الذي يواجهه الجنس البشري اليوم في حاجة إلى مزيد من الدراسة ونحن نأمل أن يجد الدكتور "سيمونز" ما يحمله على زيادة البحث والدرس فوق ما وصل إليه في هذا الكتاب. واعتقادي أن حل جميع المسائل التي نشأت عن اختلاف ألوان الناس لن يكون إلا بأن ندرك تمام الإدراك العلاقات القائمة بين كل إنسان وسائر الناس تلك التي أنشأها فينا الحكيم العليم الخلاق.

قال تعالى:

(واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا وكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) "سورة آل عمران: ١٠٣".

والحق أن البشر واقفون على شفا حفرة من النار ولا سبيل إلى الخلاص إلا بالاعتصام بحبل الله الذي يؤلف بين الناس جميعا واتحاد الجميع بعضهم مع بعض مع إدراك أن الناس جميعهم هم خلقه الذي خلق وما خلقوا إلا لغاية وهذه الغاية لا يمكن أن نصل إليها إلا إذا اتحدت القلوب على الحب المتبادل بين الناس.

د.سير مُحَمَّد ظفر الله خان

نائب رئيس محكمة العدل الدولية

لاهاي- ١٣ أكتوبر سنة ١٩٦٠

الفصل الأول

أهمية اللون من الناحية الاجتماعية

إن العلم الذي يعني بوظائف البشرة وخصائصها والتي يبلغ المتخصصون في دراسته حوالي ثلاثة آلاف عالم في جميع أنحاء الدنيا، لم يعالج وظيفة من أهم وظائف وهي تصنيف الجنس البشري في جماعات، ولربما كان ذلك راجعا إلى ما يقال من أن هذا الميل إلى التصنيف ليس من طبع الإنسان، وأن تقسيم الجنس البشري حسب لون البشرة ليس من صنع الخالق. ومع ذلك "فاختلاف اللون" عن لونك أيها القارئ العزيز وعن أي لون آخر هو المشكلة التي حيرت الناس آلاف السنين.

وفي كل محاولة لتقسيم الناس حسب جنسهم كان للون بشرتهم الأهمية الأولى بل الأساسية في التقسيم حتى إذا انقلب هذا التقسيم إلى شيء من الترتيب يجعل أحد الأجناس أسمى من الآخر ويتخذ من هذه الظاهرة الجلدية الطبيعية التي دعت إلى التجمع وسيلة إلى الغض من أقدار الناس. بذلت الجهود للقضاء على الخلافات بمحو لفظ "الجنس" ومحو المسألة العنصرية إذا كان ذلك من الإمكان.

ومن رأي بعض الكتاب أنه يجب محو مدلول لفظ "الجنس" وأن تمحى معه المسألة العنصرية ويستعمل في هذا المجال أسس أخرى للتقسيم كحجم الجمجمة مثلا (بلومنباخ سرجي **Blumenbach, Sergi**) ولو أن هذا

سينبني عليه وضع الزنوج والإسكندنافيين في جنس واحد. ويرى آخرون أن يستبدل بلفظ "الجنس" لفظ آخر "كالجماعة العنصرية" **Ethnic Group** وبالرغم من نيل المقاصد فما زالت توجد الظروف العنصرية التي لا يمكن علاجها من الناحية الأنثروبولوجية وحدها، لأنها أيضاً مسألة اجتماعية تؤثر في الجماعات والطبقات وتقوم على تقسيم الناس حسب ألوان بشرتهم(١).

وهذه المسألة التي أسمتها اليونسكو سنة ١٩٥٠ الخرافة الاجتماعية **Sociologi- cal Myth** ذات أهمية بالغة لأنها تثير السؤال الفاصل الذي طالما وجه إلى المختصين في علم الإنسان: أي العناصر هو الأسمى وأي العناصر هو الأدنى.. أم أيها كان كذلك في عصور ما قبل التاريخ..؟ وهذه المسألة لابد أن تبدأ بتعريف واضح لها لأن كل كاتب– كما دل عليه بحث اليونسكو في العنصرية– فسرها تفسيرا مخالفا لتفسير غيره من الكتاب. ويتعمق بيتار **Pittard** في كتابه (الأجناس والتاريخ) إلى لب المسألة فيقول "إني استعمل لفظ الجنس بالمدلول الشائع– دون أية مناقشة بيزنطية– الجنس جماعة من الناس متشابهون انحدروا من آباء من دم واحد. بهذا المدلول سأستعمل لفظ "الجنس" في هذا الكتاب.

---

(١) ولم يدخل في هذا التنصيف أي عامل آخر كشكل الجمجمة أو الأنف أو الوجه أو الشعر المجعد.

الأساس التاريخي

ومع أن التفرقة العنصرية والجماعية قد وجدتا دون شك منذ أقدم العصور– كما سنرى فيما بعد– فإن المشكلة تبلورت ثانية بعد انتصار "فرديناند" و"إيزابيلا" على أهل المغرب وكشف البيض أراضي جديدة وأسسوا المستعمرات. ومن سوء الحظ أنهم ارتكبوا خطأ سيحاسب عليه ذراريهم عدة قرون متعاقبة. وعندما استعبدوا أهالي البلاد عدوا أنفسهم متفوقين عليهم لا في القوة وحدها بل في لون بشرتهم كذلك. وكان العالم منقسما إلى الجنس الأبيض والأسود والأصفر[١] ومن لم ينتظمه أحد هذه الأقسام وضع في قسم آخر حسب الأهواء السياسية وحسب القوة والسلطان. وعلى الرغم من أن أحد أبناء نوح وأحد حكماء المشرق كان لونهما أسود[٢] فإن الكنيسة أسهمت بنصيب يؤسف له في ذلك الحين إذ أصدرت مرسوما بابويا عام ١٤٥٥ يقرر سيادة النصارى على الكفار. وهذا الإجراء قد أقر في الواقع استرقاق الزنوج والهنود الحمر، وأدهى من ذلك أثار موجهة جديدة من الدعاية التي ظلت منطلقة دون قيد عدة قرون وليس هناك من شيء أقوى حيوية من الخطأ...

---

(١) لم يكن ذوو اللون الأحمر معروفين عندئذ فضلا عن أن تسميتهم بهذا الاسم كانت ترجع إلى لون بعض الأصباغ التي كانوا يصبغون بها بشرتهم للوقاية من الأرواح الشريرة أو الأمراض وكانوا يصبغون حيواناتهم كذلك باللون الأحمر ولم تكن صباغة الجلد مقصورة على الهنود الحمر. هذا ولفظ فينيقي **Phoenician** معناه الجلد الأحمر وكان البكت يسمون بهذا الاسم لصبغتهم بشرتهم باللون الأحمر. والروس وشعر رءوسهم في لون الصدأ **Rust** كانوا يسمون "الرستيان" **Rustian** كما أن لفظ "باتولي" **Batuli** المستعمل في شمال نيجيريا للدلالة على الرجل الأبيض يعني أيضا ذا الجلد الأحمر.

(٢) انظر الفصل الثالث. ولعل الأفريقي بوصفه من "الحكماء" ذكر للمرة الأولى في العصور الوسطى للدلالة على أن المسيحية ديانة عالمية. ولم يرد له ذكر بوصفه هذا في الإنجيل.

وتضمنت هذه الدعاية أن الاسترقاق هو سبيل خلاص الرقيق الذين غضب الله عليهم فإنهم بدخولهم في المسيحية سيدخلون مملكة الله من قريب. وهذا الخلاص الذي وعده النصارى للرقيق فهمه هؤلاء على أنه خلاص لهم من الرق. ويبدو أنه لم يكن هناك سبيل آخر إلى إقناع آلاف من البشر في كل يوم بصدق النصرانية. يقول "شورز" **Schurz** أن عدد من دخل في النصرانية بلغ أربعة عشر ألفاً في يوم واحد وهذا القول ينصب على الهنود الأرقاء ولكن "هيوبرت هرنج" **Hubert Herring** يقول إن الأرقاء الزنوج كانوا يجبرون على دخول الدين لأن خلاص الروح كان يقتضي الاسترقاق.

ولما كان من مبادئ النصرانية العظمى "أحب جارك كما تحب نفسك" ومن مقدساتهم "صورة الله ومثاله" لم يكن لهم خيار في ألا يعدوا الرقيق من الجنس البشري، وفوق ذلك رغبة منهم في الاستئثار بالأراضي المستكشفة حديثا وبخاصة أرض الرقيق في أفريقية صور هؤلاء الفاتحون أهالي البلاد الذين لم يرحبوا بهم ولم يكرموا وفادة (صيادي الطير الأسود) في صورة أشد قسوة وأعظم خطرا من الفاتحين أنفسهم وقد سموهم أكلي اللحوم في البحر الكاريبي علما بأن بعض الألفاظ المستعملة في السويد مثل "سكال" **Skal** ومعناها الجمجمة تذكرنا بصيادي الرءوس البيض وهي مستخدمة حتى الآن في الأنخاب في حفلات الشراب.

ومع هذا فقد ارتفعت أصوات رجال الدين ذوي القلوب الرحيمة ضد هذه المساوئ وارتفع صوت "لاس كاساس" **Las Casas** تاجر الرقيق الذي صار فيما بعد قسيسا عاليا ضد محاكم التفتيش الإسبانية وقد

رفضت كل كتاباته التي وجهها إليها وأسمتها "الأسطورة السوداء" وقد عارض "لاس كاساس" رق الهنود الحمر فقط في أول الأمر وكان من رأيه أن يحل الزنوج محلهم وهم أشد منهم قوة وقد وصلت بالسفن أول حمولة منهم قبل ذلك بفترة قصيرة إلى أمريكا الجنوبية. ثم إنه ترك هذا الاقتراح بعدة مدة وانضم إليه الكثيرون مثل "مونتسينوس" **Montesinos** و"منتوفاز" **Montufar** يعضدونه وبهذا أصبحت الكنسية كلها منضمة إلى الجانب الذي يعارض الرق.

وفوق ذلك كانت "سيدة جواديلوب" **Lady of Guadeloupe** في نصرة الهنود الحمر. ففي ٩ ديسمبر ١٥٣١ عندما كان الهنود يكرمون إحدى قديساتهم تجلت للرئيس الهندي "دييجو" وقالت له إنها هي أيضاً أم للهنود. ولا حرج في أن نتصور أن الكنيسة أو "دييجو" نفسه قد دبر هذا اللقاء ليكون آخر سهم يصوبه إلى الرق. وسواء أكانت هذه الحادثة– التي يحتفل بها سنويا والتي استمد منها هيد الجو بطل التحرير المكسيكي شعار الحرب– صحيحة أم مجرد أسطورة فأنا لفي أسف شديد لأن السيدة العذراء لم تكن كذلك في عون الزنوج ولا هي كرمتهم. ولو أنها قد فعلت ذلك فلربما كانت قد قضت على كثير من المشاحنات بين البيض والسود التي لا تزال مصدرا للشقاء والتعاسة في العالم إلى الوقت الحاضر.

وبلغ موقف السادة البيض في مبدأ الأمر من الزنوج من شدته أنه لا يزال ملحوظا في بعض التصرفات ولو بشكل بسيط، كما نرى في الذكرى السنوية للقديس "نيقولا" التي يحتفل بها الأوروبيون في بعض البلاد وفي رمزان يمثلان العلاقات العنصرية: الأول: كاهن أبيض يمتطي جوادا أبيض

ويوزع الهبات الطيبة بينما خادمه "بطرس الأسود" أو "روبرخت" Rupprecht الذي يحمل كيسا كبيراً وعصا ينشر الرعب والخوف بين الصبية.



ويمثل الرسم الثاني: جمعية السرطان. والحمار الوحشي له خطوط بيضاء وصفراء وسوداء كلها في كائن حي واحد إذا ما طعن فأصيب قلبه فإنه يموت أيا كان موضع الطعن وفي أي خط من خطوط الحيوان.

أوروبا؟ وفي هذه الاحتفالات يمثل هذا القديس الطيب كاهن أبيض على جواد أبيض يوزع الصدقات بينما خادمه "بطرس الأسود" الذي يحمل الحقيبة السوداء ينشر الخوف والرعب ويخطف الأطفال الأشقياء.

وفي هذه اللحظة التي يهم فيها العبد بإمساك الطفل يسبقه القديس ويمنع الاعتداء عليه وسط تهليل الحاضرين وصيحاتهم، وسواء أكان هذا القديس الطيب الذي يمتطي السحاب قادما من الشرق أو من جنوب إيطاليا أم من إسبانيا، وسواء أكان خادمه من المغرب أم من مصر أم كان

عبدا أسود فإن هذا لا يغير من جوهر الفكرة التي يمثلها هذا الاحتفال[1].

جزاء اللون:

قلما اعترف بأن الرجل الأسود من الجنس البشري ومتى اعترف به فلونه الأسود لابد أن يكون أية غضب الله (وصمة قابيل) وحسب ما جاء في سفر التكوين كان لابد أن يلبس "حام بن نوح" ثوب العقاب حتى القرن العشرين على أن هذا التفسير المنحرف الذي سنتناوله فيما يلي له ما يشبهه في كثير من الأساطير. منها أن الله قد خلق الخلق سودا كلهم وهيأ لهم جميعا الفرصة لأن "يتطهروا" فاغتسل البيض وابيضت أجسامهم ولم يتركوا إلا الماء الذي لا قوة فيه للزنوج فلم ينظفوا إلا راحات أيديهم وبطون أقدامهم. ومنها أن الناس جميعا هم عيال الله الأعزاء فمن سرق منهم الموز صاروا سودا وكان عليهم أن يرحلوا إلى أعال النهر في داخل القارة وقد وهب الله البيض أطيب الأشياء ليأكلوها وأردأها للسود، وهو الذي أمر أن يعمل السود في خدمة البيض، وهو الذي وهب البيض الأسلحة وبها قتلوا الرجل الأسود.

وتذهب قصة ثالثة من "جزائر فيجي" إلى أن من أساء العمل صار

---

(1) وهناك تباين بسيط في طقوس حفل القديس "نيقولا" كان يقوم به هنود "الهوبي" **Hopi** له طرافته كما يقول "سيمونز" نقلا عن "كلينبرجر" **Kleneberger** رغبة في تدعيم السلطة الأبوية حيث يتقدم أحد القرويين لا يعرف الأطفال شخصيته لينتزع الولد الشقي ويأخذه معه، وفي هذه اللحظة الحرجة التي لا يكاد يوضع فيها الطفل في الكيس يتقدم والده وينجح في خلاصه. وبهذا الإجراء يثبت الوالد قدرته على حماية ولده. ويمكن أن أزيد على هذا أنه في بعض البلاد الأفريقية وفي جيانا الهولندية لا يمثل "بيتر الأسود" بل القديس "نيقولا" "البعبع" الخاطف. وفي سويسرا لا يزال الآباء يرهبون أبناءهم بحكايات عن "البعبع الأبيض".

أسود وأعطى قليلا من اللباس ومن كان أقل منه سوءا كان أسمر اللون وأكثر حظا في الملابس أما من أحسن فقد ظل أبيض اللون وأعطى وفرة في اللباس.

وتذهب أسطورة أخرى إلى أن الله رأى ثلاثة زنوج يبكون ولكي ينفي عنهم الحزن سمح لهم بأن يغتسلوا ويصيروا ذوي بشرة بيضاء فلم يفعل ذلك إلا واحد منهم دون أخويه الآخرين. وهذا صار أبيض اللون جميل المنظر. فأكلت الغيرة قلب أحد أخويه ولكن الماء كان قد نفد فمسح بدنه بتربة الأرض الحمراء فصار لونه أحمر. أما الثالث فلم يستطع إلا غسل راحتي يديه وقدميه وهي الأجزاء الوحيدة من جسمه التي أصبحت بيضاء.

وأن من المحتمل جدا ألا تكون هذه القصص من وضع "البيض" بل تكون من وضع الزنوج أنفسهم وفي هذه الحالة يجب أن تتميز هذه القصص من القصص الموضوعة بقصد الدعابة ومع هذا فهي تتضمن سخرية لاذعة.

وفي الواقع مهما كان فهمنا لهذه القصص فليس من المؤكد أن يكون إنسان ما قبل التاريخ أسود اللون حسب نظرية "جريجوري" أو أبيض اللون حسب نظرية "ماديت" أو خليطا من أشكال مختلفة وأنماط متعددة. كما أنه ليس من المؤكد كذلك مدى ارتباط لون البشرة بتكيف الإنسان حسب البيئة المحيطة به وما أمدته به مما يقيه أثر الشمس وقد كان من قبل أبيض اللون. وعلى أساس هذه النظرية لو أن أية قبيلة من الزنوج عاشت

في الشمال مدة طويلة من الزمن لعادت بيضاء البشرة كما كانت أول مرة. ونظرا إلى أن الصفات المكتسبة لا تورث فإن أطفال الزنوج يمكن أن يولدوا بيض البشرة. وكل هذا- مع ذلك- لا علاقة له بموضوعنا؛ حيث إنه تناول المسألة من ناحية علم الإنسان لا يفسر الجانب الاجتماعي والنفسي لعزلة جماعات من الناس عن بعضها بعض وهي أحد العوامل المتأصلة في المشكلة العنصرية.

خصائص عنصرية أخرى:

عندما اتضح أن عدم المساواة فيما لأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى ألوان بشرتهم، كانت هناك محاولات للعثور على نقط أخرى حتى يمكن تفسير كره الغريب **Xenopobia** على أسس أنثروبولوجية أو بيولوجية. وبجانب حاجز اللون ظهر حاجز الرائحة، الذي يقال إنه يجعل الرجل الأبيض يحس بنفور طبيعي من جسم غير الأبيض أو رائحته، ومع هذا فيجب أن يقال إن كل من يبني حجته على هذه الرائحة- زهرة أفريقية- **Fleure D' Afrique** يغفلون أن رائحة أجسام جنسهم سواء كان- زهرة أفريقية أو زهرة أوربية- قد تكون منفرة كذلك، كما يغفلون أن هذه النظريات نشأت في مناطق يعمل الزنوج فيها ويعرقون في خدمة الرجل الأبيض وعلى كل حال فقد ثبت أن هناك عوامل كثيرة كالغذاء مثلا تؤثر على رائحة الجسم.

وقام حاجز جديد بين الأجناس على أساس المستويات العقلية التي ميزت الرجل الأبيض الذكي عن الرجل الأسود الأقل ذكاء أو البدائي أو

المتخلف أو في أحسن تقدير الأقل تقدما في سلم المدنية.

وهذا التعميم دعا إلى كثير من البحوث التي كان مآلها الفشل في أول الأمر. إذ من المستحيل أن نقارن متوسط الذكاء في شعب غير مثقف أو متعلم بمتوسط الذكاء بين شعوب قيد تقدمهم الثقافي كثير من المحرمات Taboos، إن من اليسير أن نذكر كثيرا من النقاط ولكن أهم ما نبني عليه التفرقة العنصرية سيظل هو لون البشرة الآدمية.

المشكلة الحقيقية:

ولو أن هناك علاقة متينة طبيعية بين البشرة وبين الإنسان الذي تحتويه فإن العلاقة الاجتماعية أو بعبارة أصح عدم العلاقة الاجتماعية بينها وبين العالم الخارجي ليست أقل منها أهمية. وكثيرا ما يجول في الخاطر هل الاختلاف في البشرة يسايره حقيقة اختلاف فيمن تحتويهم هذه البشرة. وإن كان كذلك فهل ولدوا على حالتهم تلك أم هم قد تغيروا من أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية. وسنتناول فيما بعد هذا الرأي الأخير لمعرفة مدى صحته. وفي هذا الفصل سنتناول الجوانب الأساسية الثلاثة لما يسمى بالمشكلة العنصرية.

١- الجانب الأنثربولوجي: المتعلق بعلم الإنسان ويعالج هذا الجانب الرأي الذي يقول بأن الأجناس الملونة دون سائر الأجناس البيضاء في بعض النواحي على قول وفي كثير من النواحي على قول آخر.

٢- الجانب الأثنولوجي: المتعلق بالأجناس البشرية؛ فالاختلاف الثقافي بين الأجناس المختلفة أو الوحدات العنصرية عامل هام في المسألة

العنصرية. إذ يجعل التلاؤم فيما بينها عسيراً أو مستحيلاً.

٣- الجانب الاجتماعي: والمسألة العنصرية هنا تتأثر بتكوين الطبقات أو الدرجات المختلفة وتتصل اتصالا وثيقا بمسألة تصنيف الناس إلى جماعات. ويدخل في هذا الجانب العوامل السياسية التي تؤثر في المسألة العنصرية.

ومما يزيد المسألة تعقيدا أنه كثيرا ما تبذل الجهود لحل مسألة متعلقة بأحد هذه الجوانب فيستعان فيها بحجج خاصة بجانب آخر كما يستعمل كثير من الألفاظ استعمالا خاطئا مثل **Xenophobia** كره الأجنبي(١) أو الخوف من المجهول والكره العنصري والحاجز اللوني والعزل الاجتماعي والتفرقة العنصرية والتحامل العنصري فيختلط على الناس فهم مدلولها ويحدث الخطأ في استعمالها، ولو أنه من المسلم به أن كل جانب من هذه الجوانب يتصل اتصالا وثيقا بالجانب الآخر أو أن بعضها نتيجة للبعض الآخر وسيكون ذلك موضع البحث فيما بعد.

وأنه في غاية الأهمية أن نقرر أن المسألة العنصرية من حيث أنها مشكلة عالمية هي مشكلة اجتماعية بصفة أساسية حددت فيها بعض العلاقات الجماعية الخاطئة التي عزلت بعضها عن بعض خواص عنصرية معينة من أهمها لون البشرة. فإذا ما تكونت من أية جماعة وحدة عنصرية معينة وإذا ما اشتملت الجماعة على طبقة اجتماعية ما ولاسيما إذا كانت

---

(١) لعل أفضل ترجمة بـ **Prejudice** ما جاء في القرآن الكريم "ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا". وإن كان الشائع هو التحامل أو الحقد أو الميل (المراجع).

في مرتبة دنيا أو فئة أضعف فقد ينشأ التمييز في هذه الجماعة، وهذه التفرقة الطبقية قد تبدو في صورة تفرقة عنصرية (أو تفسر هذا التفسير) إذا ما صاحب الطبقة اختلاف في بشرة أصحابها.

ويمكن أن نضيف إلى ما تقدم أن التفرقة العنصرية قد لا تستلزم الكره العنصري رغم ما في هذا القول من غرابة، نسوق مثلا الأوامر الخاصة بمعاداة السامية أو إيقاف هذا العداء في الجمهورية الألمانية الثالثة.

التحامل والمسألة العنصرية:

"لا تكرهني للوني" (تاجر البندقية)

يحسن قبل البدء في الموضوع أن نلقي بعض الضوء على الحاجز اللوني فذلك يوصلنا مباشرة إلى لب المسألة ولكن من المستحيل أن نتابع البحث قبل توضيح مدلول كل لفظ.

يجب أولا أن نفرق بين "الزنوفوبيا" **Xenophobia** وهي: النفور الغريزي من كل ما هو غريب، وبين "التحامل" **Prejudice** وهو لا يكون إلا نتيجة للتلقين أو التجربة كما يجب أن نفرق بين مدلول هذين اللفظين وبين التفرقة، وهي الأثر العملي لكره الأجنبي والتحامل.

أما التلقين فهو أهم كثيراً من التجربة في تكوين التحامل، فمثلا لو أن إنسانا لحقه مكروه من بعض أفراد جماعة ما فلن يكون لديه تحامل ضد جميع أفراد هذه الجماعة ما لم يؤكد أن ما لحقه هو قد لحق آخرين غيره عن طريق التلقين، وهذا التلقين على درجة من الشيوع في الحياة تجعل من المستحيل على الإنسان أن يحيا دون بغض أو تحامل وأن "تاسيتس" **Tacitus** نفسه وهو

أول من استخدم هذا التعبير **Cryptopropaganda** لا يمكن أن نبرئه من التحامل على الساميين.

وكيف يمكن أن نعرف لفظ التحامل.. يعرف "ألبرت" **Allport** بأنه الموقف العدائي الذي يقفه الإنسان نحو إنسان آخر ينتمي إلى جماعة ما بسبب انتمائه إلى تلك الجماعة، وهو يفترض بهذا التعريف أن التحامل لا يستند إلى أساس. ونظرا إلى أننا ذكرنا من قبل أن لسوء الظن أساسا يستند إليه مهما كان واهيا فإني أوثر تعريف اللفظ بأنه الرأي الذي يستند إلى مفاهيم خاطئة سواء أكانت النتيجة النهائية لهذا الرأي طيبة أم غير طيبة. وعلى الجملة يشمل التحامل شيئا من التحضير أو شيئا من الاهتمام بهدف ما ينظر إليه خلال منظار ملون وينطبق على هذا الموقف وعلى كل تحامل مشابه المثل الذي يقول (العين الصفراء ترى كل شيء أصفر).

وإني أسوق دلالة أخرى على أن التحامل أمر مكتسب من نبذة من خطاب جاءني من صديق من جنوب أفريقية بمناسبة صدور الطبعة الأولى من كتابي هذا في هولندا جاء فيه قول الكاتب "إني أذكر وأنا طفل بروتستانتي من اسكتلندا أن الكاثوليك– وأغلبهم من الأيرلنديين– كانوا يعتبرون شعبا فقيرا يجب أن يتجنبهم كل إنسان ولم نكن نعرف يومئذ شيئا عن اليهود أو الملونين؛ ولذلك كان علينا في انجلترا بعد مدة أن نعرف التحامل على هذا وذاك؛ حيث كان الكاثوليك يعدون أناسا عاديين. والآن لكل إنسان في جنوب أفريقية الخيار فيمن يكره وممن ينفر حسب الأذواق المتعددة".

يتضح من كل هذا أن التحامل- على خلاف كره الأجنبي- شيء يكتسب وليس بغريزي، أما التفرقة فهي "التعبير" عن هاتين الخاصيتين حتى في الحالة التي يكون الشخص فيها مبرأ من كره الأجنبي ومن التحامل، ولقد ضربت من قبل مثلا للموضوع بمعاداة السامية.

ولا يزال أمامنا صورتان يجب أن يذكرا بجانب التحامل والتمييز؛ الأولى: وصم النوع **Stereotyping** وهي تتضمن نسبة بعض الخصائص لكل فرد في جماعة بعينها كان يقال "كل الاسكتلنديين مفترون" والثانية: يسميها "ألبرت الدمغ" **Labelling** وسنتناول الدمغ فيما بعد، وليس الدمغ في قوة الوصم ولكنه يصبح ذا تأثير إذا ما وصمت كل الجماعة. فمثلا يجب أن يعتقد الإنسان أن كل الزنوج أكلة لحوم البشر أو شهوانيون قبل أن يشملهم لفظ "زنوج" وهو ما يصبح مفهوما سلبيا ولا داعي لأن نذكر أن الدمغ يجب تمييزه عن التحديد **Indication** فهناك فرقا كبيراً بين قولك أن فلانا يهودي (من حيث جنسيته) وفلانا يهودي (من حيث صفته التي يوصم بها).

وقد يزيد الدمغ شدة إذا صحبته علامات مميزة كالإلزام بارتداء غطاء خاص للرأس أو وضع شارة خاصة أو السير حافي القدمين ولا مانع من اعتبار هذا النوع من الدمغ دليلا على التمييز **Discrimination** نظراً إلى أن هذا التمييز يتضمن التعبير عن التحامل.

وإذا كان أحد أفراد جماعة منحطة لا يبدو بوضوح أنه واحد من هذه الجماعة فهو لا يعامل بشيء من التحامل بعد عده من البيض إلا إذا أزيح

الغطاء عن حقيقته وهذا يحدث، كما لا يخفى في المناطق التي يدعوها كيث Keith بأنها "ميكرود ياكريتك"؛ وهو لفظ يطلقه على الجماعة للدلالة على درجة تمييز أصول أفرادها، عندما يكون أقل من ٣٠% من هذه الجماعة فيهم المميزات الخاصة بها وهو يطلق على الزنوج لفظ "بندياكريتك" Pendiacritic أو "ماكرود ياكريتك" Macrodiiacritic، وأما اليهود وهم الذين لا يبدو أنهم كذلك عادة فهو يدعوهم "ميزودياكريتك" Mesodicritic، وهذا التقسيم شخصي غير موضوعي يدل على ذلك أن كثيراً من الأوروبيين– بل أكثر الأوربيين– لا يستطيعون التفرقة بين الياباني والصيني ولا بينه وبين الفلبيني أو الإندونيسي وأن معظم البيض متشابهون في نظر الصيني والأفريقي.

التمييز:

التمييز قريب جدا من التحامل؛ إنه لا يزيد على أنه تحفظ بسيط نحو جماعة بعينها ولو أنه قد ينمو حتى يتجنب المرء صحبة هذه الجماعة أو يمقتها آخر الأمر.

ولقد بذلت الجهود في الولايات المتحدة لتصنيف الصور المتعددة للتمييز العنصري ولكن لنا أن نفترض أنها تعتمد إلى حد ما على أن يسود شخص ما شخصا آخر. أو جماعة ما جماعة أخرى سيادة مستمرة وهذا يمثله غالبا الرغبة في الاحتفاظ والتمسك باحتكار أو أكثر لا يستثنى من ذلك احتكار العقل والسلوك.

ولو أن التمييز العنصري (وهو غير الولاء للقبيلة الذي يمنع جماعة

يعينها أن يتفرق شملها بمصاهرة جماعة أخرى) قد يظهر في عدة صور فهو عادة يتخذ إحدى الصور الثلاث الآتية:

أ- حملة معارضة صريحة.

ب- سخرية.

ج- عطف أو تسامح.

أ- ليس هناك ما يقال عن الصورة الأولى إلا القليل فهي صريحة وهي في "بعض الأحوال" صحيحة "غالبا". ونحن قلنا في بعض الأحوال. وغالبا لأن الناس- كما سبق القول- قد يضطرون إلى المساهمة في القيام بحملة معارضة فالرحل الأبيض مثلا في جنوب أفريقية مهما بلغ عطفه على الأفريقيين لا يستطيع أن يشغل مقعدا في عربة السكة الحديد المخصصة للأفريقيين. وإنا لنجد في هذه الحملات التي تدبر في وضح النهار ذلك الدمغ الشهير لما يعزى من خصائص الجنس الأدبي ويختلف ما يوصمون به من مكان إلى مكان ومن وقت إلى وقت- كما يقول "أرنول روز" **Arnold Rose** والألفاظ الدالة على جنسهم هي قطاع من هذه الحملات الصريحة (دين وروزن **Dean and Rosen**) ومن نماذجها أن يطلق عليهم الزنوج واللقطاء وغير ذلك.

كما يسمون أعلى المسارح عندهم بأسماء العبيد للحط من مكانتهم كما أن الامتناع عن تأدية الواجبات التي تفرضها الآداب العامة لهم هي لون واضح من ألوان التفرقة. وفي جيانا الهولندية مثلا نرى شيئا من هذا عندما يتجاهل الهولندي أي فرد يحاول التحدث معه قبل أن يبدأه بالتحية.

ومن الصور الواضحة للتفرقة التفرقة الاقتصادية وفيها تبقى الاحتكارات أو بعض المراكز المحتكرة وقفا على الجماعة الحاكمة ومنها احتكار التعليم حيث يقصر على الأقلية ويحصر في أضيق الحدود على أن أشد الاعتداءات ظلما على الجماعة المنبوذة هما القتل على جذوع الأشجار للأفراد والقتل بالجملة للجماعات **Pogrom**(١).

ب- والسخرية وهي الصورة الثانية تعتمد على النكات والكاريكاتير أو ما يسمى بالنكات العنصرية **Ethnic Jokes** "دين وروزن" وهي إما أن تكون خفيفة أو أن يكون لها معنى بعيد ملحوظ نذكر على سبيل المثال ما قيل عن طبخ المبعوثين إذ فيها إشارة إلى الزنوج أكلي لحوم البشر.

ج- والصور الثالثة هي صورة العطف الكاذب وهو إشفاق أكثر منه عطف وهذا يتضح من بعض العبارات مثل قولهم "أنا كثير التفكير في حالة الزنوج" أو "أنا بعض أصدقائي من الزنوج أيضا" و"أنا أقدر شعبكم تقديرا كبيرا" فإذا كان للكلام بقية مثل "ولكني لا أود أن أتزوج زنجية" أو "ولكن هل أنت على ما يرام من ناحية الزنوج" فإن ذلك يكون دالا على "لغة التحامل" وهو الاسم الذي أطلقه عليها "دين وروزن" **Dean & Rosen** وقد يحدث لبس في مثل هذا الكلام. فإذا قيل "أنا كثير الاحترام لسائق عربتي الأسود ولكني لا أطيق النوم في نفس فراشه" فهناك لبس بين التفرقة المبنية على المكانة والمبينة على العنصر. وهذا اللبس يحدث كثيرا في المسائل

---

(١) وكلمة "بجروم" **Pogrom** مشتقة من كلمة "بجروميت"**Pogromit** الروسية بمعنى القتل وعم استعمالها عند ثورة القوزاق سنة ١٦٤٨ عندما صار اليهود جماعة محايدة فوقعوا فريسة للأشراف البولنديين الذين كانت ديانتهم هي الكاثوليكية الرومانية ولجماعة فلاحي اليوكرين الكاثوليكيين.

العنصرية. واعتراض السيد على النوم في فراش خادمه لا شأن له بالخلاف العنصري. وفي هذا المثال كان الخلاف في منزلة الرجلين متخذاً اللون العنصري.

ومن صور العطف الذي ينطوي على التفرقة ما يقدم لأفراد الأقلية من شهادات التقدير. وفيها تنازل مصطنع من السادة لأفراد الأقلية وهؤلاء إما أن يكونوا شديد الحساسية إزاءها أو يصبحوا في حيرة شديدة فيما يراد القيام به في مقابل هذه الشهادات.

ومن آثارها "عقد الغلام" وهذا اللفظ الذي يستعمله السادة الأتراك لخدمهم وهو يدل على منزلة السيد المتلطف أو الحاني على خادمه. وهذه المسائل في غاية الأهمية كما دل ذلك بيان "الكونجو" سنة ١٩٥٦ الذي دعا إلى وجوب ترك الرجل الأبيض احتقاره للأسود وصداقته المستفيضة.

ولم يكن ليخفي هذا "العطف" عدم وقوف الرجل الأبيض في طريق الرجل الأسود ليقنعه أن التفرقة لا يقصد بها جنسه هو ولكنها موجهة إلى جنس آخر.

وفي معظم الأحوال يكون هذا العطف ظاهراً ويشعر الأبيض بخيبة الأمل إذا لم تقدر نواياه الطيبة ولم يقابل بالتقدير الذي كان ينتظره وإذا لم تصبح الخدمات المنتظرة جزاء على كل هذا حقيقة ماثلة، عند ذلك تتحدث الجماعة المخدوعة عن "عدم التعاون" وقد "أبدى جليك" **Glick** الملاحظة الآتية في مؤتمر العلاقات العنصرية الذي عقد في "هونولولو" سنة ١٩٥٤ قال: "لعل الرجل الأبيض يرى نفسه قائماً بدور صاحب الفضل إنه يلفت الأنظار إلى اهتمامه العظيم بجماعة الأقلية كلها وهو تواق إلى إقناع كل

فرد منهم بأنه لا يضمر أي سوء لأي واحد منهم وأنه يفهمهم على أحوالهم وهو شديد الرغبة في أن يقابل صنيعه هذا بالتقدير".

ولقد أصبح الآن في غاية الوضوح كيف يسيء غير البيض الظن وكيف صاروا مرهفي الإحساس إلى حد كبير. أن هذه المظاهر ليست من الخواص المتعلقة باختلاف الجنس على الإطلاق وإنما هي تفسير عنصري لإحدى المسائل الاجتماعية كما يذهب إلى ذلك "توينبي" **Toynbee**.

الدمغ:

نظراً إلى أن الدمغ يشمل أسوأ جوانب التحامل والتمييز يحسن أن نطيل الحديث فيه. ويجب أن نؤكد– مع هذا– أن كثيراً مما يسمى بالصفات العصرية التي تذكر لتكون وسيلة للدمغ ليست طبيعية ولكنها مبنية على عوامل خارجية. فمثلا لو أن قوما يقيمون في منطقة قليلة الخيرات بسبب بخل الطبيعة عليها فقد يكونون مقتصدين غير مسرفين. ولربما يصبحون مبسوطي الأيدي إذا أقاموا في منطقة أكثر خيرا وأوفر إنتاجا. ويجب أن يراعى كذلك أن للمناخ على ما يبدو أثراً عميقاً في المدينة وفي سلوك الناس.

ويرى "هنتنجتون" **Huntington** أن تقدم المدنيات بين المدارين كان أبطأ في الأراضي المنخفضة التي تدعو إلى الكسل والراحة وكان أعظم في المرتفعات التي تبعث النشاط والهمة. فلو أن الجو الحار كان في الواقع مما يضعف مقاومة الناس للدوافع الانفعالية بما فيها انفعالات الجنس لما كانت هذه الصفات عنصرية بحتة. وعلى الجملة يبدو جليا أن الدمغ ينشأ غالباً

من الجهل أو من الأحكام التي لا تستند إلى أسس سليمة، ومع هذا فالدمغ المتبادل بين البيض وغير البيض وما يصحبه من اتهام متبادل بين الطرفين سنعالجه في هذا الفصل من الكتاب.

- إن رأي البيض يمكن أن نوجزه فيما يلي:

- الزنوج وثنيون متعددو الآلهة ويجب أن نردهم إلى الإيمان.

- وهم أكلة لحوم البشر أو هم على الأقل كانوا كذلك.

- وهم غير متمدينين ويمشون عراة الأجسام.

- وهم لا يؤتمنون.

- وهم يحبون الظهور ومغرمون بالحلي البراقة.

- وهم لا يعرفون قيمة النقود.

- وهم شهوانيون ولأجسامهم رائحة خاصة.

- أن لون الزنجي فيه دلالة على ظلمة عقله.

- وهذا الدمغ يقابله من الزنوج هذه الآراء المعممة اللاذعة.

- إن البيض نصارى ولكن لهم مذاهب دينية كثيرة وكل منها يعتقد أنه أسمى من غيره وأنه هو وحده الصحيح.

- ورؤساؤهم هم أنصاف آلهة مقنعون. وبعض المذاهب يؤمنون بإله واحد والبعض يؤمنون بإلهين أحدهما للخير والآخر للشر.

وإذا كان الزنوج آكلي لحوم البشر، فالبيض يقتلون الجموع الكثيرة

ويشنون الحروب بعضهم على بعض وهم حين يقتلون لا يفعلون ذلك تقربا إلى الله ولا ليحصلوا من ورائه على ما يقتاتون به. ولكن يفعلون ذلك حبا في المال أو السلطان أو النفوذ. وإنه لموضع شك أن يكون الزنجي قد ارتكب من حوادث القتل جزءا من ألف جزء مما قام به الرجل الأبيض.

وفي الواقع لقد أخذ الزنجي يستفيد من هذه الظروف من مدة غير وجيزة ولقد كان للحرب العالمية الثانية أثر عظيم في إيقاظ الشعوب الأفريقية، ورأى الأفريقيون كيف يقوم من يسمون أنفسهم بالمتمدينين المسالمين من البيض بتقتيل بعضهم بعضا بلا أدنى رحمة كما كان يفعل تماما من يسمون بالمتوحشين من أجدادهم في حروبهم القبلية. لقد تعلم الأفريقيون والأسيويون كيف يقاومون استعماراً واحدا هو الاستعمار الألماني ولكن أكبر درس تعلموه هو "أن سيطرة أية دولة على دولة خطأ" كما يقول "ندابانيجي سيذولي" **Ndabaningi Sithole**.

أما الثقافة الأصلية فقد دمرها البيض وما بقى منها فمثواه متاحف البلاد الغربية. وللموسيقى الزنجية أثر كبير في فن الرجل الأبيض، ولقد تحولت الصور التي لا يمكن تخيلها والتي كان يرسمها قدامى المصورين إلى فن ومذهب تعبيري حديث ربما بتأثر الثقافة غير الأوربية. وجانب كبير من الفلسفة والكتاب المقدس نفسه كليهما من أصل غير أوربي. ثم ما الذي أفاده الملونون من البيض؟.. الأبنية الضخمة التي توجد بها مكاتب الأشغال والإدارت الحكومية والطرق التي تؤدي إلى المزارع العلمية وقناة السويس التي كان الدافع إلى شقها الاهتمام بالشئون الحربية والأعمال التجارية. ولقد أخذنا في مقابل كنوزنا الفنية أفلام رعاة البقر وغيرها من

السيئات والتوافه. ولدى البيض فكرة خاطئة هي أن مدنيتهم شيء مثالي ويستحق الخلود. والواقع أن أوربا لم تكن متفوقة على سائر القارات إلا من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين (سيدار سنجور) **Seder Senghor**.

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن البيض قضوا على العزلة التي كنا فيها وكانوا سببا في تقدم بلادنا، ولكن الدافع إلى ذلك كان ما يرجونه من نفع.

وقد قل بل انعدم ما ينفق على البعثات والتعليم حقبة طويلة من الزمان. ومع هذا فقد كان عجز الشعوب غير الغربية في الإدارة والأعمال والاستفادة مما يأتي به الغرب إليهم وهي ظواهر أصبحت من مميزات هذه الشعوب وجدت لديهم بسبب تعمد هذه الشعوب المحكومة على الخروج على سيادة الغرب. إنها في مركز لا تحسد عليه ولكن السبب الحقيقي سوف تظهره الأيام، وعلى كل حال هل لا علاقة لكل هذا بالتمييز العنصري؟ أم له علاقة به؟...

إن الزنجي لا يؤتمن. وهذا حق من حيث أنه لا يتردد مطلقا فيما ينبغي أن يعامل به أعداءه أو من يريدون به السوء، وهو حق كذلك يقوم به كل فرد في الأمة المغلوبة على أمرها حيث يعتبر التخريب وعدم التعاون أمرا مألوفا بل عملا مشرفا. وفي مقابل هذا نرى الرجل الأبيض كثير الوعود قليل الوفاء.

وعندما كان الزنوج يملكون الأرض جاء الرجل الأبيض وفي يده الإنجيل ولكن بعد أن مرت عقود قليلة أصبحت الأرض للبيض والإنجيل في يد الزنجي "فريزييه"... **Frazier**.

وفي زمن الحرب يدعونا الرجل الأبيض إخوته، وأما في زمن السلم فهو لا يقبل أبناءنا في مدارسه.

والزنجي يحب المظاهر. ولكن بلاد الرجل الأبيض ملأى بالحوانيت التي تبيع توافه السلع والجواهر الزائفة التي يزدان بها الأهالي. والبيض يظهرون ما بأيديهم من ثراء ويحاكون من هم أسمى منهم قدرا وأعرض جاها.

والزنوج لا يعرفون قدر النقود، ولكن البيض يعبدون المال الذي جلبوه لنا، وإلى جانب الكنيسة يقوم المصرف وكلاهما معبد الرجل الأبيض. وعطلة المصرف تغني عن كل تعليق.

وفوق هذا فالرجل الأبيض يحب جمع المال ويبحث دائما عن العمال ذوي الأجور البخسة.

والزنوج بدائيون، ورقصاتهم الشعبية، وأعيادهم وثنية، ولكن آلاف البيض يهللون فرحا– إلى يومنا هذا– عندما يشهدون مصارعة الثيران وهي لا تتفق مطلقا مع مدنية القرن العشرين ولا مع تعاليم المسيحية. وكل محاولة لتبرير ذلك بأن يقال إن الواجب يقضي بتفهم روح من يشهدون هذه الحفلات أو يشتركون فيها– هذا التبرير يمكن أن ينسحب على آكلي لحوم البشر وتعدد الزوجات– "رتشموند"– **Richmond** وغيرهما بأعذار مشابهة. فلماذا لا نحاول تفهم روح من يحتفون بهذه الأعياد.

والزنوج شديدو الغلمة. والبيض لديهم بيوت الدعارة ودور البغاء السري وقد شاعت في مجتمعهم قرونا عدة وفي فنادقهم يقطن آلاف من الآخذان غير المتزوجين.

وللزنوج رائحة خاصة. ولكن من البيض من لا يستحمون إلا مرة كل أسبوع. ومن السخف أن تقارن رائحة شخص معطر من الطبقة الراقية برائحة عامل. وأكثر سخفا من ذلك مقارنته بعامل غير أبيض، وبناء كثير من النتائج المنطقية على تلك المقارنة.

ويدعي البيض أن الذكاء وروح الفكاهة والابتكار لهم دون غيرهم. وهذه المغالطة يتقبلها من لا يرون إلا ما لا يتجاوز وقع أقدامهم. فإن أوربا لم يكمن مآلها إلا الانحطاط منذ زمن سحيق لو كانت في عزلة عن الثقافات الأخرى. إن كل مدنية لابد أن تندثر لو ظلت عقيمة لا ينالها خصب مدنية أخرى.

تكفي هذه المآخذ من وجهة نظر غير البيض. لقد أوجز "رتشموند" **Richmond** ألوان الدمغ وكتب في ذلك أن في انجلترا من يعتقد أن "أهل المستعمرات" وثنيون، وغير متمدينين وشهوانيون وجهلاء قليلو الخبرة في الاقتصاد وغير مستقلين. كما يعتقد من وجهة أخرى كثير من أهل المستعمرات أن انجلترا بلاد مسيحية ليس من شيمة أهلها التعصب العنصري، فيها رخاء ويسكن أهلها في بيوت متسعة. وأن نساءها مولعات بالرجال الملونين وأن لكل بريطاني الحق في التعليم العالي وأن بريطانيا بلاد قوية وأن معظم قوتها مستمدة من كثرة مستعمراتها.

أول رد فعل للحاجز اللوني:

كان من المنتظر أنه عندما انتهى عهد الرق والاستعمار أن يفكر الزنوج في أن يتخلصوا من أسمهم هذا الذي فيه إشارة إلى الرق أو إلى الرق

السابق والذي يعيد إلى أذهانهم القيود القديمة التي كانوا مقيدين بها وأن يتخلصوا أيضا من تخلفهم الثقافي. وهروبا من لفظ موجب كلفظ زنجي أو ملون استعمل لفظ سالب في كل مكان واستعمل "غير الأبيض" رغما من أن فيه إشارة إلى التفرقة. وفي صحوتهم العنصرية التي أصبحوا يحسونها– بل لعلى أقول في اكتشافهم لشخصيتهم التي ظلوا محرومين منها طويلا صار كثير منهم يحسون بالفخر بأنهم زنوج ويطلقون على أنفسهم هذا الاسم ويكتبونه بحروف واضحة.

وهذا اللفظ "غير الأبيض" لحقه أيضاً تغيير من حيث أنه اكتسب معنى "ضد البيض" لدى الزنوج وغيرهم من الأجناس الأخرى. بل شمل الشعور "بضدية البيض" أقواما مختلفين عن العنصرين جميعا ممن نشأوا معا في ظل الاستعمار. ومن هنا نشأ نوع من القومية أساسها لون البشرة (من ضدية البيض).

تطهير الاسم:

كل محاولة لتفخيم اسم أحد الشعوب يجب أن يكون هدفها محو أسماء معينة تتضمن شيئا من الازدراء حتى وإن لم تكن تحمل هذا في الأصل. وفي كثير من المستعمرات كان الأهالي يسمون بالوطنيين. وهذا اللفظ أصبح دالا على التحقير لا لسبب إلا لأنه أطلق على شعوب غير مستقلة. ويذهب "توينبي" إلى أن تسمية أية جماعة أجنبية بأنهم وطنيون مع عدم الاعتراف بأن لهم أي نشاط اقتصادي يتضمن تصنيفهم كالحيوان والنبات في عالم جديد.

ولهذا السبب عينه أصبحت الأسماء التي كانت تطلق على الشعوب الملونة غير مقبولة لديهم مادامت تتضمن التبعية السياسية[1]. وكانت النتيجة المفهومة لهذه التفرقة في اللون والاسم أن أصبح الزنجي بصفة خاصة يحاول إخفاء أصله أو يختار اسما جديدا لجنسه. كلفظ أفريقي في أفريقية مثلا أو يحاول إضفاء العظمة على لفظ "زنجي" كما ذكرنا من قبل.

ونظرا إلى ما كان لكلمة "**Asiatic**" من مدلول خاص في المستعمرات استبدل بها كلمة "**Asian**"، وحيثما كان لون البشرة نتيجة اندماج لونين كالذي يدل عليه لفظ "**Eurasian**" أو "**Anglo- Indian**"، فهناك جماعة متوسطة أسمى منزلة من الجماعة الأشد منها سمرة رفع منزلتها أحد شطري اللفظ وحط منزلتها عن البيض الشطر الآخر منه. ولهذا لم يكن كل من هذين اللفظين مقبولا. وكان هذا هو ما قوبلت به كلمة "**Mulatto**" أو مولدين وهي مشتقة من كلمة تفيد التهجين وهذه الكلمة استبدل بها كلمة "كريول" في سورينام وقد أطلقت على الزنوج كذلك. وأول ما استعملت هذه الكلمة عندما أطلقها الإسبانيون على البيض الذين يولدون في المستعمرات ولو أنها قد تدل أيضا على الرقيق الذين يولدون في المستعمرات خلافا لمن يجلب من الرقيق من خارج البلاد[2]. ومهما كانت حجة هذا القول فإن هذا اللفظ يطلق الآن على كل من يولد في أمريكا

---

(1) يمكن هنا أن نذكر الكلمة الإنجليزية **House maid, Labourer** وقد حل محلها الكلمتان **Domestic help, Worker** وفي مصر أخذ لفظ عمال المنازل يحل محل لفظ "الخدم" وشاع هذا في انتخابات الاتحاد الاشتراكي في مايو سنة ١٩٦٣.

(2) وقد كان ابن الرقيق ملكا لأم سيده وعلى هذا لا يدفع له ثمن. (المراجع).

الجنوبية وبخاصة المنطقة الكاريبية[1]. ويجب أن يكون مفهوما أن كل من يطلق عليهم هذا اللفظ من البيض أو الصينيين أو الهنود الذين يولدون في جنوب أمريكا لا يطلق عليهم بسبب ما في اللفظ من دلالة على السواد[2].

ثم حدثت محاولات مهمة لرد الاعتبار لأسماء الشعوب، مما رد إليها مكانتها، ودفع إليها الشعور الديني. من ذلك ما فعله "جارفي" **Garvey** سنة ١٩١٤ في الولايات المتحدة؛ حيث أسس كنيسة أفريقية تنادي بمذهبه الخاص مثَّل فيها الإله زنجيا والسيدة العذراء زنجية. وقد ظهرت في أفريقية الكنيسة الأرثوذكسية "للكيكيو" **Kikiu** وغيرهم وكانت الأسماء التي استعملت فيها مماثلة للأسماء التي يستعملها الرجل الأبيض ولكنها كانت لا تعترف بسيادته. وهذه الحركات كانت مختلفة بطبيعة الحال عن الحركات الموجهة ضد الغرب كحركة "الماوماو".

خطوة جديدة، ثورة الطبقة الخامسة:

إنه من الأهمية بمكان أن الخطوة التالية في تطور المشكلة العنصرية

([1]) ويطلق اسم "الكريول" أيضاً على الأفريقيين الذين عادوا إلى قارتهم من أمريكا وبريطانيا واستوطنوا سيراليون. في غرب أفريقية– وتمثل ذراريهم حتى الآن مجتمعا سائدا متميزاً عن السكان الأصليين هناك. (المراجع).

([2]) عند ذكر لفظ الهنود **Indians** في هذا المقام نقصد الهنود القادمين من الهند ونطلق الهنود الأصليين على هنود أمريكا. وفي أمريكا الجنوبية الإسبانية كان المستعمرون الأوربيون يطلقون أسماء مختلفة على الجماعات كما يلي فيسمون "كابوشين" **Capuchines** أو "كابيتون" **Capetones** وجاء بعد هؤلاء "الكريول" **Creole** وهم أبناء الرعيل الأول بشرط ولادتهم في أمريكا الجنوبية ثم أطلق "المستيزو" **Mestizos** على أبناء البيض والهنود الحمر "والمولانو" على أبناء البيض والزنوج. ثم أطلقت على الهنود وعلى أبناء الهنود والزنوج وأخيرا على الزنوج.

والصراع ضد الحاجز اللوني قد وصلا إلى علم عامة الناس– هذه الخطوة ترجع إلى الجوانب الاجتماعية– فأي جنس "أدنى" مهما كان نوع دونيته هو في مرتبة أدنى من جنس أعلى منه حتى لو كان علو هذا الأخير راجعا إلى قوته الحربية أو الاقتصادية وهذا دعا إلى التفرقة بين الشعوب الحاكمة والشعوب المحكومة (من أنت؟) وفي المنزلة الاجتماعية (ماذا تملك؟) ولم يكن هذا التمييز على درجة كبيرة من الظهور إذا صحبته فروق في لون البشرة. وقبل أن نعالج الفرق بين الوضع السياسي والطبقي من حيث علاقة كل منهما بلون البشرة يحسن أن نتناول مفهوم كل منهما بعبارة وجيزة.

ففي أوربا قبل العصور الوسطى بمدة كان هناك تمييز بين الوضع السياسي للنبلاء ورجال الدين وسواد الشعب. وكان الأطباء والمحامون ومن في مرتبتهم يكونون طبقة متوسطة مستقلة[1] ومع وجود هذه الأوضاع الثلاثة السياسية كان هناك فارق مبني على مدى ما يملكه الفرد "كالبروليتاريه" كما كان يطلق عليهم في رومة **Proletaria** لم يكونوا يمتلكون إلا أولادهم "البرول" **Proles** وهذه الطبقة الدنيا أطلق عليها فيما بعد اسم الطبقة الرابعة.

ولو أن هذه العلاقة الجذرية المستقرة في العلاقات الطبقية لحقها بعض التأثير من وقت إلى آخر إلا أن التأثير الكبير الذي أصابها وأحدث فيها تغييراً كبيراً، كان إبان الثورة الفرنسية عندما قضت الدولة الثالثة

(1) لم تكن التجارة مقصورة على طبقة واحدة وهذا أحد الأسباب التي لم تمنع اليهود من التجارة ولم يعد التجار من الطبقة المتوسطة إلا حديثا.

Tiers Etat على الطبقتين الأولى والثانية. وكان للطبقة الرابعة اليد العليا في الثورة الروسية.

وأثمرت هاتان الثورتان "المساواة" التي حصلت عليها في أثناء القرن الحالي كل البلاد الغربية حتى صار لكل فرد في الجماعة صوت مساو لغيره في اختيار ممثليه في المجالس النيابية وأكثر من ذلك كان لهذه "المساواة" ميزة هامة؛ حيث خولت لأي فرد من أي طبقة ممن يجمعهم لون واحد أن يدعي الانتماء إلى طبقة أخرى إذا قضت بذلك ضرورة أو مصلحة.

فها هو ذا رجل يحمل صندوقه الصغير وما فيه من مأكولات بدلا من أن يحمل أوراقا مهمة، وآخر في فمه لفافة فاخرة من الطباق بدلا من علبة اللفافات التي يحملها أفراد الطبقة الرابعة. وبهذا القياس يمكن أن يفكر الإنسان في خواتم التوقيع والأردية المصطنعة والأسلحة التي تدل على الأصل النبيل.

ولو أن مكانة الناس ظلت متميزة بالملابس الخاصة وما يماثلها فإن هذا لا يقارن بالخاصية التي لا يمكن أن تتغير معها الطبقة ولا المنزلة السياسية؛ ألا وهي لون البشرة. إن هذه المشكلة قديمة. فالتفرقة على أساس الحاجز اللوني أو المكانة كانت سابقة في روما القديمة لوجود التصنيف اللوني فيها من زمن طويل. وفي الهند كان التقسيم إلى طبقات إلى لون البشرة أو "الفارنا" Varna[١]. ووجد نظام جديد لتقسيم الناس إلى

---

(١) الواقع أن الطبقات كانت نتيجة لتقسيم الشعب إلى طبقة الكهنة والمعلمين وطبقة العسكريين وطبقة التجار وطبقة أصحاب الحرف وهي أدنى الطبقات ومما يجب ملاحظته أن "كرشنا" Krichna أحد صور "فشنو" Vishnu كان أسود اللون.

طبقات بعد القرن الخامس عشر في المستعمرات عندما احتل البيض أرفع الوظائف في كل عمل. وكان لهم طرقهم الخاصة في الحياة. وعاداتهم الخاصة وكان لهم في أغلب الأحيان قوانينهم الخاصة كذلك.

وكانوا لا يصهرون إلا فيما بينهم إلا في أحوال استثنائية ثم إن "الديانة البيضاء" قد جاءت باحتمال أو أمل حصول البيض على مكانة عليا. ولكن الواقع أنه حتى وحدة الديانة– كما في الديانة الهندوكية– لم تسد الثغرة بين الطبقات المختلفة أو بين الأحوال السياسية. وهذا يوصلنا إلى النتائج الآتية:

أولا: لم يكن الرقيق وسكان المستعمرات الأصليون من بعدهم إلا أدنى الطبقات. مما يضعهم في مصاف الطبقة الخامسة. حيث إنهم كانوا أقل من أدنى طبقات البيض أو طبقتهم الرابعة[١].

ثانيا: والطبقة الخامسة كانت تتميز بلون بشرتها.

ومما هو جدير بالذكر أن عبارة الطبقة الخامسة فيهما لها نفس معنى المنزلة الاجتماعية لأن الطبقة الخامسة لم تتكون من جماعة ذات عنصر واحد، بل من جماعة تشمل طبقات مختلفة من الأجناس المحكومة خضعت جميعها بحكم القوة.

ومن هنا يتضح أن حركات الحرية في المستعمرات أصبحت هي ثورات الطبقة الخامسة من حيث هي طبقة، ولو أنها كانت أبطأ من الثورات الأخرى وسالت فيها الدماء في مدى أطول. ولعل لفظ **Coate.**

---

(١) الفقير الأبيض كان يسمى زنجيا.

Class أنسب الألفاظ في هذا المقام حيث إن الثورة الجديدة تتضمن ظاهرة اللون التي تجعل من المستحيل إحداث أي تغيير في الحالة السياسية. والأغنياء المحدثون **Nouveaux riches** والصفرة الجديدة **Nouvelle élite** لا يمكن أن يختفوا وسط الطبقات الأربع الموحدة اللون؛ ذلك لأن البشرة لا يمكن أن تخلع كما تخلع ملابس العمل. بل نتيجة لهذا كله حدث عكس ذلك تماما وصار اللون القاتم هو اللون العالمي للطبقة الخامسة كما صارت القبعة الفريجية[1] هي علامة الطبقة الثالثة.

أوراق البيض وأوراق السود على المائدة:

غير خاف أن حركة تقدم الزنوج- بل كل الأجناس الملونة- لم يرض عنها البيض ولا يزال موقفهم كذلك منها إلى الآن. ولا مراء في أن تقدم الزنوج لا يمكن بلوغه ما لم يرفع عن كاهلهم سلطان البيض وهذا ما يدعو دائماً إلى نعت تقدمهم بأنه حركة هدامة. وقد اتخذت الإجراءات أحيانا لوقف هذه الحركة بالقوة ووضع رؤسائها في السجون ولم يكن لهذه من نتيجة إلا توسيع شقة الخلاف بين البيض والسود. ولا تتحسن الأحوال إذا ما ناصر البيض آمال السود لأسباب سياسية فكثيرا ما تؤدي إلى كشف وسائل السود وإلى إيجاد عدم الثقة فيما يقوم به البيض من خدمات أو يبدون من شعور طيب وهذا واضح في كلمات السيد "كوامي

(1) قارن الارتباط بين ثورة الأشراف والعهد الأعظم **Magna Charta** في انجلترا سنة ١٢١٥ وثورة الطبقة الثالثة وإعلان حقوق الإنسان **Drotits de L'homme** في فرنسا سنة ١٧٩٠ وثورة الطبقة الرابعة وإعلان حقوق العمال الكادحين في روسيا سنة ١٩١٨ وثورة المستعمرات ومؤتمر باندونج **Bandong** سنة ١٩٥٥.

نكروما" رئيس جمهورية غانا إذ يقول:

"ليس غرض الرجل الأبيض سواء ظهر أم خفي إلا السيادة. وهكذا نحن في موقف نرى فيه الأسود غير واثق بما ينشئه الأبيض من علاقات يجب أن يبرهن على حسن نيته فيها. والآن يرتفع المد الملون ويهدد الجسور ولا يمكن إيقاف هذا الخطر إلا بالتمسك بمبادئ الأمم المتحدة التي توجب احترام كل فرد غيره دون نظر إلى لون. وهذا ينطبق من الناحية التاريخية على الرجل الأبيض أما من وجهة نظر الرجل الأسود فهذا يتضمن إحدى نظرتين، وبناء على النظرة الأولى نخال الرجل الأسود يقول "في قلبي أمر خطير واحد أخافه ذلك أنه إذا أحب الرجل الأبيض يوما ما فإنه سيجد الرجل الأسود كارها". وأما النظرة الثانية فإن الرجل الأسود يقول "أنا الشخص الذي خلق في بشرة مخالفة لبشرتك. إني أمد يدي إليك لنعيد معا بناء هذا العالم الظالم ونجعله أفضل مما وجدناه. وأنا الإنسان في إهاب مخالف".

الفصل الثاني

الجانب الجغرافي للحاجز اللوني

يجدر بنا– بعد أن تناولنا مسألة اللون– أن نتتبع الخط الفاصل أو الحاجز اللوني بين ألوان الجنس البشري في العالم أجمع وقد أصبح الحاجز اللوني بسبب كثرة استعماله لفظا واضح المعنى لا يحتاج إلى شرح فهو يعني الحاجز الخفي أو الجلي الذي يفصل البيض عن غير البيض متغيرا حسب الزمان والمكان والظروف(١).

ويمكن تقسيم المظاهر التي تقع على جانبي الحاجز اللوني إلى نوعين يمكن تسمية أحدهما بالظرفي وتسمية الثاني بالقصدي. وأمثلة السياسة الظرفية تراها في الولايات المتحدة حيث الأمريكيون ضد الزنوج في الجنوب لا في الشمال على أنه– مع هذا– لا يعد مناصرا للزنوج بحال. ويسود هذا الموقف نفسه في المستعمرات البريطانية. وأما في روديسيا فالأفريقيون محرومون من الوظائف الكبيرة ومن النوادي والحوانيت والمكاتب بل من

---

(١) يبلغ تعداد العالم حسب تقدير الأمم المتحدة ١٩٠٠ مليون نسمة من غير البيض، ويبلغ البيض ٨٥٠ مليونا. وهو أقل من نصف العدد الأول. وسيبلغون حسب تقدير الأمم المتحدة في نهاية القرن ٦ بلايين أو سبعة أي ضعف عددهم سنة ١٩٦٠ وسيكون في آسيا وحدها ٤٠٠ مليون، ويبلغ الصينيون خمس عدد العالم. وسيبلغ الأفريقيون ٥٠٠ مليون والأمريكيون ٣٠٠ مليون والروس ٥٠٠ مليون. والباقي يشمل سكان غرب أوربا. ولا يعلم أحد كيف تحل هذه المسألة. إن تخطيط الأسرة يقوم به من سمع به وعرف أمره. أي البلاد المتقدمة. وعلى هذا فأكثر الشعوب عددا هي أسرع الشعوب في زيادة عددها.

المصاعد ما لا يباح لهم دخولها ويسمى في روديسيا بنظام المدخل الضيق **The hatch System** وهو شبيه بتعليمات جيم كرو[١] التي تتبع في بعض المناطق في أمريكا خاصا بعربات السكة الحديد والفنادق ودورات المياه وغيرها. وفي سائر المستعمرات البريطانية ليست العلاقة في مثل هذه الشدة. ولعل ذلك راجع إلى أن الأجناس أكثر اندماجا.

أما السياسة الصارمة المتبعة في جنوب أفريقية– سياسة "الأبرتهيد" **Apartheid**– فهي السياسة القصدية.. وفي بعض المجتمعات حيث يوجد قطاع آخر يشمل ذوي الأجناس المختلطة يوجد فاصل ثان بين هؤلاء وبين الجماعة الكبرى التي انفصلوا عنها. وفي بعض البلاد يعد هؤلاء رسميا من البيض وفي غيرها يعدون من الزنوج. وبناء على قولا "جيمس برايس" **James Bryce** توجد بلاد يعد فيها أبيض كل من ليس بأسود وبلاد أخرى فيها عكس ذلك. وهو ما يتفق مع قانون السود القديم في فرنسا **Code Noir**.

النظام البريطاني:

يعد كل سكان المستعمرات البريطانية رعايا بريطانيين. ومع هذا ففيها فاصل واضح للون يصحبه تمييز بين الملونين والبيض وفيها قدر يسير من الاندماج على أنه مقصور على الآسيويين. وفي هذا النظام البريطاني يعد ذوو الأنساب المختلطة والأوربو أسيويون من "الملونين" أو "غير البيض".

---

(١) جيم كرون عنوان أغنية زنجية يغنيها دين ريس **Dean Rice** ألفت سنة ١٨٣٠ ويبدو أن عنوان الأغنية يشير إلى لون الغربان الأسود.

وقد ذكر "آلان برنز" **Allan Burns** في كتابه "دفاع عن المستعمرات" أن البريطانيين لم يحاولوا الاندماج مع الوطنيين في مستعمراتهم لأنهم أرادوا أن يحفظوا لهم أصولهم غير مختلطة وألا يدمجوهم ثقافيا ولا جنسيا في جماعات كبيرة العدد من الأجانب(١).

ويبدو أن هذا الرأي لم يكن مستساغا أو مقبولا لدى الرأي العام العالمي. وقد أردت أن أفسر في الفصل السابق عدم اندماج جماعة البيض في الوطنيين من حيث أنه نوع من المصاهرة بين الجنسين. وفي الفصل الرابع تفسير لبقاء البيض دون اختلاط بأنه مبني على الحاجة إلى الاتحاد التي تشعر بها الأقلية التي تعيش في بلاد أجنبية.

ومما لحظه "برنز" أن هناك نوعا نمطيا من مقاومة الاستعمار يعم بخاصة البلاد التي توجد بها التفرقة العنصرية وشيء من الاستعمار. وهو يذكر الولايات المتحدة مثلا بتلك البلاد وقد حكمت جزائر الفلبين وهاواي ولا تزال تحكم جوام **Guam** وبورتوريكو **Porto Rico** والفرق ضئيل بين موقف البريطانيين إزاء سنغافورة وموقف الأمريكان إزاء منطقة قناة بنما. ويرى "برنز" أن الاستعمار الروسي يخفيه عن الملاحظة أن دائرة نفوذه تمتد إلى البلاد المجاورة لروسيا في أوربا وآسيا. والدعوى الكاذبة التي تقرر أن مياه المحيط الملحة ليست حاجزا ماديا بين البلد الأم والمستعمرات فحسب

---

(١) إن دعوى عدم رغبة البريطانيات في إنجاب الأطفال في المستعمرات ليتجنبن وصمهم بنسبتهم إلى جنسية المستعمرات **Colonial** هي دعوى غير صحيحة في الغالب والسبب العادي لعودتهن إلى أوربا هو رغبتهن في الحصول على الرعاية الطبية فيها. ومع هذا فهناك حالات تؤيد رغبة البريطانيات في الولادة على السفن الرأسية في المواني لكي يولد أطفالهن في "أرض" بريطانية.

بل هي أيضا حاجز معنوي يغشى سائر أشكال الاستعمار والغلبة والتوسع كستار من دخان.

وعلى هذا الأساس كان من رأي "برنز" أن لا يعد أحد سكان "فلاديفستك" روسيا إلا كما يعد الهندي إنجليزيا. ومع هذا فالفاصل اللوني يفصل الأخيرين أحدهما عن الآخر ولا يفصل بين الأولين. ومؤلفات "برنز" عظيمة الأهمية ولكن فيها أحيانا ما يدل على قصر النظر. كتب سنة ١٩٤٨ قال: "إن سكان البلاد الكثيرة التابعة لنا يقدرون مزايا حكمنا لهم. ولا يرضيهم أن يستبدلوا به حكما آخر ويرضون الاستقلال منه بديلا. فما على الإنسان إلا أن يوجه نظره نحو غانا التي كان هو نفسه حاكما عليها، إن رئيس حكومتها الذي غير اسمها نفسه في أقل من عشرة أعوام أشار إلى هذه المزايا باعتبارها تغطية للاستغلال الاقتصادي. والطريقة التي غيرت بريطانيا بها سياستها تتضح من حكمين صدرا في مدى عشرين عاما".

ففي سنة ١٩٤٩ قال "جودفري هجنز" **Godfrey Huggins** في معرض الحديث عن روديسيا "سيكون الرجل الأسود في المنطقة الأوربية موضع ترحيب بوصفه عاملا على أن يكون مفهوما أنه لا يتعدى أن يكون معينا لا منافسا للرجل الأبيض".

وبعد عشر سنوات فسر "ماكميلان" وجهة النظر البريطانية في "كتب تون" بما يلي:

(إن "عواطف التغيير" أخذت تهب في أنحاء أفريقية. وسواء رضينا أو

لم نرض يجب أن نعترف بالواقع؛ أن ما نراه نحن البريطانيين صوابا أو خطأ فإنما نستمد من الحكم تجارب الفشل والنجاح في إدارة الشؤون. وأن هدفنا هو خلق مجتمع تحترم فيه حقوق الفرد– مجتمع يكون أساس تقدم الإنسان فيه سياسيا واقتصاديا هو عمله وكفايته. إنا نرفض فكرة تفوق شعب على آخر تفوقا مبنيا على صفات طبيعية فيه. وعلى هذا فسياستنا ليست مبنية على التفرقة العنصرية). ثم قال وهو يتحدث عن جنوب أفريقية "إن بعض جوانب سياستكم تجعل من المستحيل أن تهب جنوب أفريقية عوننا وتشجيعنا دون أن نكون مناقضين لعقيدتنا العميقة في حرية الإنسان التي تعمل في بلادنا على إقامة صرحها.

نظام الولايات المتحدة:

لا يزال النظام البريطاني البروتستانتي يسود في الولايات المتحدة وفي جزائر الهند الغربية التي كان يحكمها البريطانيون والهولنديون إبان الحكم الاستعماري. أما في أمريكا الجنوبية بسبب النفوذ الإسباني الكاثوليكي فليس فيها فاصل اللون. ويشعر كل فرد في أمريكا الجنوبية أقل سوادا أنه متفوق بعض الشيء على مواطنيه الذين هم أكثر ميلا إلى السواد.

وفي الولايات المتحدة يعد مكتب الإحصاء زنجيا كل فرد أحد جدوده من الزنوج ولو لم يبد من ملامحه الظاهرة أنه من غير البيض الخالصين. وعلى هذا فكل الأجناس المختلطة على اختلاف درجة هذا الاختلاط تعد في الولايات المتحدة زنوجا. مع إغفال نسبة الدماء الزنجية فيه. وإنه لمتفق مع المنطق أيضا أن نعد كل مختلط النسب أبيض "مهما قلت نسبة الدم

الأبيض فيه" وهذا القول الأخير هو أحد الشعارات التي كثيرا ما تسمع في البرازيل[1]. وعلى هذا فمنطق مكتب الإحصاء في الولايات المتحدة يستطيع أن يعد كل رجل مختلط النسب أبيض ولكن ليس لأي زنجي حقوق مماثلة في الولايات الجنوبية. وكان من أغراض قانون الحقوق المدنية الذي أصدره "أيزنهاور" سنة ١٩٥٧ أن يحدث بعض الإصلاح في هذا الموضوع. ويوجد الآن قانون عام أريد به إنهاء التفرقة العنصرية في جميع الولايات. وفي كثير من البلاد لم تعد هذه العبارة "للبيض وحدهم" تستعمل في الإعلانات. وحل محلها "نحن جميعا أمريكيون". والمعاملة الظالمة للعمال بسبب عنصرهم يعاقب مرتكبها. ولكن تصفية المسألة العنصرية في الولايات المتحدة لا تزال بعيدة المنال.

النظام الفرنسي:

إن هدف هذا النظام هو الاندماج بين البيض والسود "الأخوة" وكل سكان الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار مواطنون فرنسيون[2]. وكل مختلط النسب (هجين) يعد أبيض كلما أمكن ذلك ولا يعد عادة من السود. وهذا النظام الذي يقتضي الاندماج نظام مثالي (كل الناس أخوة)

---

(1) تضع إدارة الإحصاء في الولايات المتحدة المولدين من غير البيض في جنسية آبائهم باستثناء المولدين من الزوج والهنود الحمر فإنها تعدهم من الزنوج.

(2) تشمل فرنسا فيما وراء البحار الممتلكات الفرنسية في أفريقية وأمريكا الجنوبية والبلاد التي تحت الوصاية. ومع أن الجزائريين يعدون مواطنين فرنسيين (قبل استقلال الجزائر) فهم إما مواطنون فرنسيون أو "محليون" هذا وقد حصل بعض الأقاليم الأفريقية على الحكم الذاتي بناء على قانون سنة ١٩٣٦ وفي الجمهورية الفرنسية الفدرالية الحديثة حصلت الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار على "المساواة" مع فرنسا. ولها صوتها في اختيار رئيس الجمهورية الفرنسية.

بينما الاندماج في "الكومنولث" البريطاني واقعي (كل الشعوب إخوة).

ومع هذا فقد ظهر بمرور الزمن أن هذا النظام الفرنسي فيه رياء إذ من السهل أن تدعو إنسانا بأن تقول له يا "بني" وليس من اليسير أن تقبله صهرا لك. إن التناقض في هذا النظام سيبين في القسم التالي. ويجب أن يذكر هنا أن الأفريقيين يعاملون في فرنسا معاملة أكرم من معاملة العرب مما يدل على أن اللون ليس هو وحده أساس العلاقة بين الناس.

النظام الأيبيري Iberian:

هذا النظام مبني أيضا على الاندماج. ففي الولايات المتحدة البرتغالية فيما وراء البحار مثل أنجولا وموزمبيق لا توجد تفرقة عنصرية رسمية ولكن يوجد مع ذلك شيء من التفرقة المترتبة على اللون تصاحب مستويات التعليم والمستويات الاجتماعية المختلفة. وهذا للتفرقة بين الوطنيين الأصليين أنفسهم الذين يكلفون ما يشبه أعمال السخرة. ومن الوطنيين المتعلمين ذوي البشرة السمراء والأفريقيين الذين هم أقل من هؤلاء سمرة ويسمون "المسترو" **Mistro**. وهؤلاء يعدون عادة من البيض.

وفي غينيا وموزمبيق وأنجولا يعد الأفريقيون الذين لم يندمجوا في التعليم واللغة والعادات من الصنف الأول. وهناك نظام يسمح بانتقال هؤلاء إلى مصاف المواطن البرتغالي إذا ما تعلم اللغة البرتغالية، وكان حسن السلوك وقام بالخدمة العسكرية ويتضح من ذلك أن الفاصل اللوني له علاقة كبيرة بالفاصل الطبقي. ونظام "الامتصاص" **Assimilado** الذي يبدو في ظاهره نظاما يستحق التقدير يراه أحد كتاب روديسيا أنه "يصيب القومية

الأفريقية في الصميم. فهذه السياسة تقتل الروح الأفريقية في الأفريقي. وتستبدل بها الروح البرتغالية.

وإذ يقبل البرتغاليون الأفريقي المندمج فيهم فإنهم لا يقبلون أفريقيا وإنما يقبلون البرتغالي الذي لقحوه به. فهذا النظام لم يقبل الأفريقي كما هو، وهو يود أن يبقى أفريقياً لا يتغير. وهذا النظام أشبه شيء بالنظام البلجيكي والنظام الفرنسي في الاندماج وليس لدينا عن إسبانيا إلا كلمة موجزة فقد تركت عدة قرون من الاحتلال المغربي أثرها في الأهالي الإسبانيين وبخاصة في الجنوب. ولا تزال تعد إسبانيا الدولة الأم للمستعمرات الإسبانية السابقة في اللغة والثقافة وقد مكَّن اتحاد اللغة آلافا من سكان أمريكا الجنوبية من الدرس في جامعات مدريد.

النظام البلجيكي:

كان هذا مخالفا للنظام الفرنسي والأيبيري ولم يكن أهل الكونجو وطلاب العلم بخاصة يشجعون على ترك بلادهم[1]. والسبب الذي يعزى إليه هذا؛ أن من هؤلاء الذين يتعلمون في الخارج ينشأ القوميون[2].

---

(1) كان في الكونغو التي كانت تابعة لبلجيكا جامعتان وسبعة وعشرون ألف مدرسة وحوالي خمسمائة مركز تديرها البعثات الكاثوليكية ومائتان وسبعون مركزا يديرها البروتستانت. وكان يصدر بها حوالي ٢٥٠ صحيفة ومجلة منها مائة باللسان الوطني.

(2) عند استقلال الكونغو في عام ١٩٦١ لم يكن في كل جامعة لوفانيوم إلا ٢٤٧ طالبا ليس منهم متخرج واحد. ولم يكن من كل رواندا أورندي سوى سبعة عشر طالبا جامعيا. ولم يكن يزيد مجموع الطلاب الذين تلقوا دراسة ثانوية– في كل الكونغو– عن خمسة وعشرين ألفاً، بينما المجموع الكلي للسكان نحو ثلاثة عشر مليوناً أي أقل من ٢%. وبهذا كان التحكم في التعليم من ناحيتي الكم والكيف. يراجع

Hennessey, M. N.: Congor Pall Mall, London, 1961.

وستتضح صحة ذلك في آخر هذا الفصل الذي نتكلم فيه عن موقف غير البيض في مجتمع من البيض. والتاريخ الحديث قد برهن أن حبس المواطنين فيما وراء البحار في بلادهم لم يحل دون التطور ومحاولة الحصول على الاستقلال.

وفي الكونغو لم يكن لفاصل اللون أساس قانوني. ولكن كان هناك الفارق الاجتماعي[١]، وكان مختلطو النسب يعدون تارة من البيض وطورا من الأفريقيين. وقد صرح الملك بودوان في إحدى النشرات التي أصدرت في المعرض العام في بروكسل أن أهم مسائل المستعمرة هي العلاقة بين السود والبيض. والنظام البلحيكي من الناحية الرسمية لم يكن يهدف لا إلى التفرقة ولا إلى الاندماج وكلا الأمرين لم يقم الدليل على أنهما موضع رضى في جنوب أفريقية أو في أفريقية الشمالية الفرنسية. وقد ذكر البيان الكونغولي في سنة ١٩٥٦ أن الوسيلة الوحيدة للتعاون الحقيقي بين البيض والسود هي في الاحترام المتبادل والصداقة الصحيحة. وفي نفس السنة أذاع وفد الكونغو التصريح التالي: "نحن في حاجة على المدنية الغربية ولكن لا شأن لنا بالجانب القبيح من المدنية الغربية ونحتج على خلق النزاع الطبقي. ونحن راغبون لا في علاقات السلام بيننا وبين البلجيكيين فحسب بل في العلاقة التي تقوم على الصداقة" وكل تفرقة عنصرية ألغيت في جميع

---

(١) كانت هناك في الكونغو جوانب من التفرقة العنصرية تنظمها القوانين. كان القانون ينص على أن يسكن الملونون أحياء خاصة بهم **Cites Africanies** وهذه غير أحياء خاصة للأوروبيين **Quartiers, Européens** يراجع في هذا المجلة الاقتصادية الأفريقية التي تصدرها هيئة الأمم المتحدة. في المقال التالي **Leopoldville and Lagos Economic Bulletin for Africa Vol. 1, No. 2 P. 51 J June 1951**

المجالس المحلية والمكاتب الحكومية سنة ١٩٥٧ وصدر مرسوم يقضي بعقوبة كل من يدعو إلى الكره العنصري ولم يكن هذا حلا للمسألة. فعندما رحل البلجيكيون عن الكونغو قامت فيها الثورة الجامحة وأعلنت فيها أفراح الحرية. لقد صارت الكونغو مستقلة ولكن الذين يزعمون أن الاستقلال مقرون بالتقدم خاب أملهم في تطور سريع.

النظام الهولندي:

لم يصدر في إندونيسيا قانون يدعو إلى الاندماج كما حدث في الممتلكات البرتغالية فيما وراء البحار. وظل الإندونيسيون محتفظين بصفتهم السياسية والأطفال الهولنديون الشرعيون المولودون في إندونيسيا وحدهم يعدون من الرعية الهولندية. واختلاف اللغة في الممتلكات الهولندية السابقة ذات أهمية خاصة. فهي تكاد أن تكون فريدة في تاريخ الاستعمار. فلم يكن الأمر مقصورا على عدم بذل أية محاولة لتعليم اللغة الهولندية. بل كان كل إندونيسي يخاطب سيده– دع عنك سيدته– باللغة الهولندية يعد مذنبا. وهذا الفاصل كان أساسا لوجود فارق طبقي. نظرا للسماح للوطنيين من الطبقة المتوسطة بالتكلم بالهولندية. وعندما نستعرض التاريخ القريب نجد أن هذه السياسة كانت أشبه شيء بذلك السلاح الذي يرتد للصائد بعد أن يرمي به. فإن اللغة قلما تصل إلى الوطنيين وقد لحظ "بانيكار" Panikar في مؤلفه المسمى "آسيا والسيادة الغربية" أن علاقة المستعمرين المادية بالإندونيسيين هي التي أنفذت بلادهم في آخر الأمر.

وفي سورينام والأنتيل الهولندية كان النظام المتبع مبنيا على الاندماج.

لقد كان كل وطني يعد رعية هولندية. وفي سورينام بخاصة عم استعمال اللغة الهولندية ورسخت قدمها. وكان سبب هذا قلة السكان من جهة، وثانيا لإتباع نظام للتفرقة مخالف لما اتبع في جزائر الهند الشرقية السابقة. وفي سورينام لم يكن المتعلمون يميلون إلى استعمال لغتهم. وكان استعمال اللغة الوطنية ممنوعا في المدارس وقد استبدل بها اللغة الهولندية. وفي جزائر الأنتيل كانت كثيرة التجارة مع الجزائر الإسبانية والبريطانية المجاورة وفنزويلا مما عاق انتشار اللغة الهولندية. وكانت اللغة الدارجة هي الإسبانية.

النظام الياباني:

عندما خضعت أجزاء كبيرة من الجنوب الشرقي لآسيا للاحتلال الياباني إبان الحرب العالمية الثانية كانت هناك ظروف ظاهرة منعت وجود فاصل اللون فيها. ولما كانت اليابان العظمى هي كبرى البلاد الآسيوية الحرة ورائدتها كان عليها أن تكتب ود الآسيويين وتضعف في نفس الوقت نفوذ الرجل الأبيض. وإذ اتخذت اليابان هذا شعارا لها فقد ألغت فاصل اللون القديم بين المستعمرين وأهل البلاد بعطف كبير وفتحت على مصاريعها النوادي والفنادق وما إليها للوطنيين بعد أن كانت محرمة عليهم وقد تطور هذا إلى ثورة ضد سيادة البيض بل جعل سواد الشعب في ثورة ضد طبقتي البيض العليا والمتوسطة اللتين كانتا مكونتين في الغالب من العناصر المختلطة. وكانت عقيدة اليابانيين غير الخفية بأنهم هم المحررون لهذه الشعوب وأنهم شعب مختار– كانت أية صغيرة ولكنها كافية للتفرقة. ويكفي أن نقارن مسلك اليابانيين في كوريا وفورموزا وتايوان في العهد الماضي، وفوق ذلك كانت سياسة اليابان هي الاندماج السريع في كل

المناطق التي كانوا يرون أنها متخلفة. ومن الأوامر التي تدل على هذه الروح إلزام كل فرد أن يسمى باسم ياباني، ولم تنجح هذه الإجراءات إلا في خلق كثير من الحركات الوطنية الآسيوية الصميمة.

وعلى الجملة لم تقدم اليابان لمن حكمتهم من الشعوب تلك الفترة القصيرة ما يحمدونها عليه إلا القليل(١).

النظام السوفيتي:

لم يكن من المنتظر– لأسباب واضحة– أن يجد الإنسان فاصل اللون في الاتحاد السوفيتي. فالاشتراكية تعرض كأنها أسمى مراتب المساواة والإخاء وهدف الماركسية هو إلغاء أو على الأصح رفع طبقة البروليتايا التي تتميز بلونها في كثير من البلاد، وفوق ذلك فإن الدولة التي تدين بوجودها إلى محاربة الترفع على الطبقة المعدمة التي كان تعدادها يبلغ الملايين لجدير بها أن تتجنب إقامة فاصل اللون(٢). ولكن لأسباب سياسية أوجد فيها اللياقة اللونية(٣). ويبدو أن هذا أكثر أهمية نظراً إلى أن حوالي ربع سكان الاتحاد

(١) داي نيبون **Dai Nippon** أكبر جزائر اليابان سميت بعد الحرب العالمية الثانية نيبون كوكو **Nippon Koku** أو أرض بيبول.

(٢) مما كتب جنتر **Gunther** أن الرقيق في روسيا القديمة حيث الشعوب المحكومة لم تكن إلا بمثابة الممتلكات التي شرعها الدين ولم تكن منزلتهم تختلف عن الزنوج في أمريكا. وكان الرقيق في روسيا مع هذا يتجاوز عددهم الزنوج في الولايات المتحدة ونظرا إلى وجودهم في جميع أنحاء البلاد كان لهم أهمية اقتصادية أكبر من هؤلاء.

(٣) قارن نداء الثورة الروسية: يا شعوب العالم المضطهدة اقضوا على هذه الآراء القديمة، وانتبهوا يا من ولدتهم أمهاتهم في ظل العبودية، لن نعيش بعد اليوم وفق إرادة الغير، أيها الرفاق استمعوا إلى صوت المساواة.

السوفيتي من غير البيض وأن بها حوالي ٢٠ مليون مسلم.

ومن رأي "ولتر كولارز" **Walter Kolarz** أن روسيا تطبق في مبدأ الأمر خط الأخ الكبير في الأقاليم الجديدة ثم تأخذ في حرمانها من كل شيء حتى أسماء البلاد من ذكرياتها القومية، وهو يوازن "مبدأ الأخ الكبير" الذي لدى الروس بموقف الصين إزاء برما والتبت وموقف هولندا من إندونيسيا واليابان من سائر آسيا، على أن الأولى كانت أكثر نجاحا. ويعبر هذا المبدأ عن نفسه– فيما وراء البحار– فيما يطلق عليه حلف شمال الأطلنطي **N.A.T.C** "الزحف الشيوعي" فمنظمات مجلس تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية، والاتحاد العام لعمال أفريقية السوداء تقدم عونا ثقافيا للدول النامية مثل الذي تقدمه مجالس وبعثات الأمم المتحدة.

نظام جنوب أفريقية:

في جنوب أفريقية يسود نظام العزل الاجتماعي الدقيق "الآبرتهيد"، ويقصد به التنمية الذاتية و"التوالد الذاتي" ولكن العزل يعني التفرقة من حيث تعريفها. ويمنع قانون اللا أخلاقيات **Immorality Amendment** الصادر سنة ١٩٥٠ الزواج الاتصال الجنسي بين البيض والسود(١). وقد أعلن الجنرال "سمطس" **Smuts** أن التمييز بين الأجناس إجباري وقال "مالان" **Malan** أن العزلة إحدى تقاليد جنوب أفريقية.

وكل من يعارض هذا التقليد أو يتردد في المساهمة في تنفيذه يعد مرتكبا

(١) ينبغي أن يميز بين الأفريقي **African** وبين الأفريكاني **Afrikaaner** الذي أطلقه بيض جنوب أفريقية على أنفسهم باعتبار أفريقية وطنهم وتمييزا لأنفسهم عن السود. (المراجع)

جريمة الخيانة. وفي جمهورية جنوب أفريقية تعتبر ولاية الرأس أكثر الولايات تساهلا في تطبيق الحاجز اللوني. ومع هذا فإن عليها أن تكون خارجة على ما يتبع في سائر أنحاء الاتحاد. ويعتبر ملونو الرأي من غير البيض.

ومسألة العزلة يعالجها مكتب جنوب أفريقية للشئون العنصرية. وقد أصدر "توملنسن" **Tomlinson** تقريرا في هذا الموضوع سنة ١٩٥٦. وهو ينصح أن يكون تقدم البيض بمعزل عن السود والصعوبة– مع ذلك– هي من أن السود متفوقون في العدد بينما البيض هم الأقلية المتحكمة. وهذا ليس غريبا في المستعمرات عادة. ولكن في جنوب أفريقية أمر له أهمية خاصة وهو أن البيض فيها ليس لهم وطن أصلي– أي ليس لهم وطن "أم" ولهذا السبب جاء في إجابة "فرفورد" **Verwoerd** إلى "ماكملان" أن المسألة العنصرية في جنوب أفريقية لا تتضمن خصومة الأفريقي فحسب. وإذا ما ذكر الإنسان العدالة يجب أن يذكر العدالة للرجل الأبيض كذلك.

ويرى "هورنليه" **Hoernle** أن الوحدة العنصرية تتم عن طريق الاندماج الثقافي والاقتصادي بعد أن يتم للجماعة اندماج اجتماعي وسياسي وحيوي، وأكثر ما يخاف هو النوع الأخير لأنه يهدد بقاء الرجل الأبيض فإن عدد السود ثلاثة أضعاف عدد البيض، ولذلك فإن الخطوة الأولى للاندماج تقابل بحذر شديد.

أما من حيث حقوق البوير في أفريقية الجنوبية فمن المسلم به أنهم هم الذين أنقذوا البلاد من قبائل الشاكا والدنجان **Chaka & Dingaan** الذين وفدوا من بلاد بعيدة وقد قتلوا في غزوهم جنوب أفريقية ما يبلغ

مليون نسمة من البانتو **Bantu** ومع هذا فكثيرا ما يذاع أنه ليس للأفريقيين حقوق في هذه المنطقة. وهذا الرأي قد يكون منطبقا كذلك على الأمريكتين وفي استراليا وعلى الهنود الآريين في الهند[١]. ومع كل فالمسألة في مستقبل الأيام أكثر أهمية منها في الماضي أو حتى في الوقت الحاضر فحقوق الأولوية لا قيمة لها بالإضافة إلى العلاقة بين الجماعات المختلفة. فنسبة السود إلى البيض أو ما يطلق عليه معامل اللون الديموجرافي **Demographic Pigment Cofficient** التي كانت كالنسبة بين ٤ و١ سنة ١٩٠٤ فهي بعدما لا يتجاوز نصف قرن كالنسبة بين ١١ و٣ ولو أن المعادلة الأخيرة يمكن أن تختصر إلى ٤ و١ فإن المهم هو الفرق العددي وهو الذي يعتد به. ففي سنة ١٩٠٤ كان البيض حوالي مليون نسمة والسود ٤ ملايين في جنوب أفريقية فقفز العدد إلى ٣ ملايين من البيض و١٢ مليوناً من السود سنة ١٩٦٠[٢].

وزيادة على هذه المصاعب العنصرية يوجد في جنوب أفريقية المنافسة الشديدة بين الأفريقيين الأقوياء من الناحية السياسية والبريطانيين ذوي النفوذ الاقتصادي القوي. كما يوجد بها الخلافات الدينية كذلك، ويبلغ الكاثوليك ٥% والبروتستانت ٦٠% وهؤلاء منقسمون إلى فرق ومذاهب لا عد لها.

---

(١) من الغريب أن يطلق الكاتب هذا الرأي مع هذا التحفظ البسيط مع أن حق كل فرد مكفول في موطنه ومسألة قدم الأفريقيين في جنوب أفريقية دافع عنها أكثر من كاتب. يراجع في هذا الفصل الأول من كتاب **Peoples & Policies of South Africa. 1960** (المراجع).

(٢) البيض ٣ ملايين والوطنيون تسعة ملايين ونصف والملونون في مستعمرة الرأس مليون والآسيويون ٨٠٠.٠٠٠.

وفي سنة ١٩٦٠ بلغت هذه المسألة حدات مخيفا يوم أحرق الأفريقيون تصريحات المرور التي يلزم بها القانون. إذ عدوها شارة للتفرقة العنصرية وهذه التصريحات هي في الواقع تفيد في تعيين أهل البلاد من آلاف غيرهم يريدون اجتياز الحدود، وليست هذه التصريحات مما يلزم استعمالها لدى البيض لأنهم لا يقدمون إلا من طريق البحر أو الجو وتبحث جوازاتهم في الميناء، ومشكلة التصريحات يجب أن تعد مقياساً للحالة العامة؛ حيث إن البيض لسوء الحظ لا يرضيهم أن يصيب الأفريقيون أي تقدم[١].

أمريكا الجنوبية:

لم تنشأ في أمريكا الجنوبية مسألة الاندماج نظرا إلى أن ما يسمى بالجماعة الأصلية التي يتولد منها الملونون قد أصبحت في منزلة ثانوية والجماعات المتوسطة التي نشأت عنها أصبحت هي جنسا له كيان خاص. له مع ذلك "شعر خاص" أو "حاجز ظل" **Shade bar** وسنعود إلى هذا الموضوع ثانية في الفصل الرابع.

---

(١) في جنوب أفريقية يلتزم كل أفريقي بحمل التصريح وهو غير مقتصر على الوافدين فقط. وأدى هذا إلى وقوع الأفريقيين في كثير من المخالفات القانونية مما فتح المجال أمام القبض الجماعي على الأفريقيين إذ كانت الحكومة تريد أن تمد بعض المزارع الأوربية باليد العاملة. ذلك لأن الحكومة هناك تعتبر مجرد القبض على الأفريقي اتهاما، والمتهم يخير بين السجن والعمل في مزرعة أوربية.

مدى انتشار فاصل اللون وأسس الأجلوم والشوكي

Ogloum chokei.

رأينا من قبل أن فاصل اللون قد يسير في بلاد كثيرة ضد البيض؛ حيث يتحرك ضد البيض تاركا مجالا أوسع للسود. والعلاقة بين تحرير السود المستمر وبين نمو الحاجز اللوني يمكن ملاحظتها بعد إلغاء الرق مباشرة حينما انمحى كل نفوذ للجماعات البشرية في الجانب الأسود من الحاجز اللوني. ومع هذا فعند انتهاء الرق أوشكت أيام عجز السود على الانتهاء، ورغما من هذا؛ أي مع عم وجود الرق ابتدعت عدة وسائل لإجبار الشعوب المحكومة على تأدية خدمات بلا مقابل، وعلى مر الوقت كانت الأجور تؤدي لما يقوم به العمال من الخدمات التي كانت تفرض عليهم فرضا وكانت العقوبات توقع على كل من يمتنع عن تأديتها. وإذا كان هناك نقص في العمال كان العمال يجلبون من البلاد الأخرى التي قد تكون على بعد شاسع في بعض الأحيان. وبعد تحرير الرقيق الزنوج في أمريكا الجنوبية مثلا ظهر الصينيون والإندونيسيون في منطقة البحر الكاريبي حيث هجر الزنوج المزارع[١]. وأمكن الحصول على العمال من طريق الرق أو بدفع الأجور. وكان من الآثار الباقية للرق الالتزام الذي يؤدي بمقتضاه بعض المناطق العمال اللازمين وعلى هذا أمكن الحصول على العمال بطريق الرغبة على أن يحصلوا على أجورهم بإشراف رؤساء العمل من البيض. ومن الأساليب التي كانت متبعة نظام حصول إحدى

---

(١) يطلق لفظ الطائر الأسود **Black Bird** على الزنجي الرقيق.

المناطق على الأجر مقدما في مقابل تقديم العمال اللازمين (Neo-Peonage) ولقد تطور النظام من علاقة الرقيق بسيده إلى نظام الخادم إلى سيده، ثم إلى فكرة الأخ الأكبر وتطبق في بعض البلاد[1].

وكانت إحدى نتائج حاجز اللون أنها جعلت لون البشرة هو العامل المهم في تقرير وضع الفرد، ولم تكن النتيجة المنطقية لهذا ما قيل بأن الشعوب التي تقهر من السود فحسب بل إن الشعوب السوداء هي التي تقهر.

وهاتان العبارتان صحيحتان إلى حد كبير ولكن هذا لا يؤثر على أن لكل منها معنى مغايرا للأخرى، وكان هذا الإيهام سببا في استحالة خروج الملونين عن السلطان الأعلى للسادة الحاكمين. ونظرا إلى أن هؤلاء كانوا عادة من البيض فقد كان هناك تدرج في اللون حسب الوظائف التي كانت في المستعمرات، حتى الحكم غير المباشر كان يضطلع به الموظفون على طريقة (الساندوتش) إذ كانت السلطة العليا في يد البيض ثم يجيء الملونون في الوظائف التي تلي وظائف هؤلاء. ثم تجيء طبقة من الموظفين البيض ثم الطبقة الأخيرة الدنيا من الملونين الذين يكون عادة أشد سمرة من "الطبقة" الثانية.

حاجز اللون في عالم البيض:

إن أي وصف للجانب الجغرافي لحاجز اللون لا يكمل ما لم يبحث الموقف في أوربا ولو أنها هي القارة التي من المفروض خلوها من مشكلة

([1]) هذه المعاملة. معاملة الأخ الأكبر للأخ الأصغر– توجد أيضا في أوساط خالية من علاقة البيض بغير البيض. فهي واضحة في معاملة أهل جاوه لسكان سائر الجزائر الإندونيسية بما فيها سومطرة نفسها.

اللون. ولا يخفى أنه في أوربا كغيرها من أنحاء العالم تختلف تفاصيل حاجز اللون من بلد إلى بلد ولكن يكفي هنا أن تذكر الصفات العامة لحاجز اللون فيها.

ولقد وفد إلى أوربا حتى قبل الحرب العالمية الأولى عدد من المهاجرين غير البيض ولكن وجودهم بين مجتمع البيض لم ينشأ عنه أية مشكلة، بل ظل الأمر غير ملفت للنظر أو لم يقابل بما يستحق من الاهتمام. وزاد عدد من زاروا أوربا بعد الحرب العالمية الأولى زيادة كبيرة، بل شجعت بعض البلاد هذه الزيارات مثل فرنسا والأراضي المنخفضة ولكن الهجرة على مستوى كبير لم تشجع مطلقا. على أن عددا كبيراً من الجنود السود قدموا إليها بعد الحرب العالمية الثانية[١] ونتج عن ذلك بقاؤهم في جزء كبير من ألمانيا.

وفي هذه الفترة عينها استقبلت أوربا من غير البيض عددا متزايدا من الطلبة وآلافا ممن سبقت هجرتهم من المستعمرات إلى البلاد التي تتبعها هذه المستعمرات، وكان الاندماج في مجتمع البيض غاية في الصعوبة، حتى مع زواج المهاجرين الملونين للنساء البيضاوات، مما يدل على أن أكثر من ٤٠٠ طفل ملون هجرتهم أمهاتهم البيضاوات. (وهذه صورة مقلوبة لما عمل في المستعمرات السابقة حيث هجر كثير من الآباء البيض أولادهم الملونين قبل ميلادهم). ولهذه الأسباب وخوفا من المتاعب التي تنشأ عن تنبيه الرعايا الملونين فيما وراء البحار صارت مسألة اللون مما يشغل بعض

---

(١) كانت إقامتهم مختلفة عن تلك الإقامة القصيرة بعد الحرب العالمية الأولى.

البلاد الأوربية، ولكن مسألة اللون عند هذه البلاد تختلف عنها في الولايات المتحدة أو في جنوب أفريقية. لأنها ليست مشكلة تفرقة بل مسألة اندماج على أنه من الواجب أن نقدر أن الملونين فيها أقلية ضئيلة، ومع كل هل تعلمنا من التاريخ أو هل استفدنا من التجارب..؟ ولطالما فشلت محاولات لإدماج الملونين في مجتمع البيض، بل قد نتج عنها أحيانا عكس المراد منها. وإذا ما اقترن زنجي ببيضاء فقد تم شيء شبيه بالاندماج في الجيل القادم لو أن مثل هذا يسمى اندماجا، ولا شك أن نوعا من الصداقة قد توطد موهما بأن الاندماج بين الجنسين قد تم. والواقع أن الزواج نفسه لا يخلق الاندماج الصحيح، وكانت النهاية التي لا مفر منها ظهور هذه الحقيقة واضحة. وها هي ذي حادثة والد الزوجة التي طلب من صهره ألا يكثر من زيارته، بسبب الجيران، وشبيه بهذا ما حدث للزنجي الذي لم يلاق أثر حاجر اللون في مقاهي أوربا ومطاعمها إلى أن طلبت منه المقاهي يوما ألا يتردد عليها في فصل الصيف خشية شكوى السائحين الأمريكيين، وهذا قد دعا كثيرا من الملونين إلى كره المدنية الغربية لا حبها وتقديرها.

وفي مثل هذه الظروف لا يكون للإقامة في أوربا أي غرض ذي فائدة، ولعل هذه الأحداث التي يسميها "توينبي" "دافع الضغط" هي التي كان لها أثر كبير في كبار المجاهدين ضد الاستعمار وفي كبار القوميين في هذا القرن.

ويرى "دي فرايز" **De Vries** "أن أشد لطمة يقشعر لها بدن الطالب الملون أن يسمع ويرى العبارات الدالة على التفرقة توجه إلى من عاشوا في

أحضان المدنية الغربية وعجزوا عن أن يحصلوا على ما كانوا يعدونه يوم رحيلهم مفتاح القوة والعزة والكرامة"، ومن رأي المؤلف أن هذا صحيح ولكن هذا الرجل الملون الذي عاد إلى وطنه لا يلبث أن يجد المكان اللائق في بلاده، ولكن الصعوبة في اللطمة التي أصابت الطالب عندما كان في البلد الأم. وليس أثرها شعورا مؤقتا بخيبة الأمل بل سيكون أثرها الشعور بالإهانة التي تتطلب الانتقام، وقد تكون الإهانة مما لا يكاد يدخل في هذا الباب ولكن الرجل الملون الذي لا يجد في أوربا من حسن الضيافة إلا مظاهرها الكاذبة يحس بهذه الإهانة. وهو ملاق فيها- على حد تعبير "جنتر" **Gunther** الإخاء دون المساواة. ولقد أشرنا من قبل إلى حادثة الرجل الذي عبر عن تمييز اللون لدى صهره، وشبيه بها حادث الشاب الزنجي الذي استقبلته أسرة من البيض بالترحاب حتى إذا طلب الإصهار إليهم- أصيبوا بالذكر والاضطراب الشديد.

وقد يدعو توالي عبارات التمييز إلى حالة من التوتر الشديد مما قد يحدث عنه انفجار في النهاية. إني أسوق لهذا مثلا فتاة زنجية عاملة بأحد المصانع أحست بالدافع إلى أن تضرب ضربتها. فقد كانت عاجزة عن أي اتصال حقيقي بأحد في المصنع وكان يؤلمها ما تسمعه من الألقاب الدالة على الزراية بها فقد بلغ بها التأثر أن تملكتها الرغبة العارمة في الانتقام فحاولت تسميم جميع العاملين معا. ولن يذكر هذا التصرف دليلا على أن السود "ليسوا أهلا للثقة" إلا جاهل أو خؤون.

فإذا ما نجح الملون في تحطيم الحواجز العنصرية والاجتماعية وصل إلى المكانة التي يستأثر بها عادة الرجل الأبيض- وعندئذ يصبح الاندماج

ميسورا. ومع هذا فهو اندماج ظاهري ولو أن من العسير التفرقة بينه وبين الاندماج الحقيقي لأن الكرامة التي يتضمنها مركز الشخص الجديد أو حالته الجديد ترجح الضعة الناتجة من الأصل العنصري، ولا يخف هذا الحرج إذا كان الشخص الملون قليل الطموح راضيا بالبقاء في الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها معظم ذوي قرابته. وهذا في الواقع مناقض للاندماج؛ إذ أنه سعيد بحظوته بمكانة ما في دائرة ضيقة من مواطنيه في إطار مجتمع البيض. وحسبه ذاك. هذه الدائرة المحدودة توهم بوجود الاندماج ولكن قد يكون الأمر على عكس ذلك تماما. هذه الحالة يسميها "ويرث" **Wirth** الاعتزال **Secessionism**. هي حالة استقلال سياسي وثقافي واجتماعي للأقلية. وهذا الاعتزال أمر نسبي إذا ما طبق على ظروف غير البيض في أوربا نظرا لصعوبة وجود وحدة ثقافية متماسكة واستحالة الاستقلال السياسي مع الحرمان من حق الانتخاب.

ولقد تكرر القول بأن القادم الحديث يقابل أحيانا بالترحاب لأنه شخص جديد وشخص معروف ولهذا كان ملفتاً للنظر و"الموقف الأجنبي" الذي يقفه الرجل له صلة وثيقة بالبلاد التي قدم منها القادم الجديد. فإذا كان الرجل الأسود قادما من بلاد مستقلة كان في موقفه من الكرامة ما ليس لقادم من إحدى المستعمرات، فهو ليس أحد أفراد المستعمرات فيما وراء البحار بل هو مواطن حر قادم من إقليم حر مستقل. وعلى هذا فلن يكون موضعا للزراية. لن يكون أثر لكره الغريب ولا لحاجز اللون بل سيكون بدلا من ذلك حب الغريب أو شعور بالزمالة لهذا الأجنبي الذي صارت بلاده صنوا للبلد الأم. وعلى أساس هذه الظاهرة تختلف مكانة

الأقليات المتعددة اللون في الأراضي المنخفضة حيث يوجد الأمبونيز Ambonese والأوراسيون وأهالي الأنتيل وسورينام.

والموقف الذي يقفه الناس من الرجل الغريب قد يخلو من "الفتنة" به إذا كان مسلك القادم الجديد غير حميد. وإذا كان هؤلاء السفراء الذين يدعو تصرفهم إلى النقد ذوي بشرة ملونة فما أيسر أن يعدوا نموذجا لعنصرهم بأكمله، وهذا خطأ وقع فيه كثير من البيض في المستعمرات.

إن المهاجرين الجدد يفسدون العلاقات العنصرية الطيبة إذ يعرضون جميع مواطنيهم إلى أن يعتبروا مثلهم، وهذا ما يدعو الملونين من ذوي المكانة إلى تجنب عشرة أبناء جلدتهم الذين لا يراعون جانب القانون في مسلكهم كما يدعوهم إلى عدم احترامهم. وفي هذه الحالة لا يقال إنهم يتنكرون لجنسهم.

والآن قد وصلنا إلى حيث يجب أن ينتهي الموقف العدائي ويبدأ الاندماج تتضح الأسباب التي تحول دون هذا الاندماج. إن في إمكانها أن تحمل المهاجر أو أي فرد من أفراد الفئة التي ينظر إليها بعين التمييز والتفرقة على أن تسير في الطريق التي لا تتوقع السير فيها. فلكي يستطيع الحياة في هذا المجتمع الغريب يجب عليه أن يبحث عن عمل يكسب منه معاشه في الميادين التي لا يلقى فيها أية مقاومة. فعندما أخرج اليهود من النقابات اضطروا إلى البحث عن الأعمال التي ظلت ميسرة لهم. وبهذا أصبحوا أكبر المشتغلين بأعمال المصارف، وكذلك صار الصينيون من بائعي الفول السوداني أصحاب المطاعم، ووجد الزنوج في نهاية أمرهم

متنفسا لفنهم في مسارح الترفيه. ويشبه "توينبي" هذا بنمو أحد أعضاء الجسم إذا ما عجز آخر عن أداء مهمته، وهو ما يسميه دافع التعويض **Imulus of Peralization** ويجب التفرقة بين هذا وبين محاولة من يشعر بألم التمييز في محاولة خدمة مآربه الشخصية بأن ينضم إلى من يهزأ بآلامه وآلام مواطنيه. إن مثل هذا التصرف نراه عندما سئل أحد الزنوج عن سبب مرحه فأجاب بأنه إذا لم يكن مرحا فإن شقاءه يكون مضاعفا.

أنت لا تسمع صراخ قلبي.

لأن فمي يتسع بالضحك.

أنت لا تعرف أني أموت.

أن أقدامي تمرح في رقصها.

والملجأ الأخير لمن يرهقهم التمييز الخداع بأن ينتسبوا لغير جنسهم، وهناك حل آخر للمميزين وهو يصدق بصفة خاصة في البلاد التي يكون الملونون فيها أقلية سياسية؛ وهو يقضي بأن يكون الملون عارفا بمقدار ما تصبو إليه نفسه من آمال وأن يرضى بنصيبه الذي قدر له. ولربما كان من الواضح أنه لا يوجد إنسان يقنع بمثل هذا النصيب ما لم يعتقد أنه أمر مؤقت وأن كل إنسان مهما قل شأنه سيجيء له اليوم الذي ينصف فيه.

والآن أصبح واضحا أنه لا حديث في الاندماج الكامل بين البيض والسود. حتى بين الجنس الواحد قد يحتاج الغريب أن يندمج فيه إلى جيل

كامل. إن "الجريكو"[1] **El Greco** لم يعتبر إسبانيا إلا بعد موته، ورغما من أن أعماله الفنية مودعة في المتاحف الإسبانية نماذج للفن الإسباني فلم يكن يطلق عليه طول حياته إلا "الجريكو" اليوناني.

ولما كان من غير الممكن أن يكون هناك اندماج تام حقيقي فالتعبير بهذا اللفظ يعني الاندماج السطحي أو الاندماج الجزئي، أو التكيف بالنسبة للظروف ليس غير، وهذا التكيف ضروري إذا أريد لكرة أن تغير اتجاهها وينقلب الاندماج إلى خلاف يتحول فيه الرجل الملون كارها للبيض. وهذا يحدث أيضا إذا ما حاول الأبيض أن يذكر الملون بأياديه عنده. والتاريخ قد برهن أولا أن العكس هو الصحيح. والأمر الثاني أن فعل الخير يعتمد إلى حد كبير على نفسية الطرفين.

وإذا أريد أن نحدد الاندماج بمعناه الصحيح يجب أن نختار لفظا أنسب لوصف العلاقة بين الأجناس المختلفة. ولربما كان لفظ الأخوة معبرا صالحا للعلاقة بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر، والتحالف أو المشاركة يدلان على اتفاق المصالح ولكن ليس هذا المهم بل قد يكون فيهما خطر على حسن العلاقات. يقول "ليوبولد سيدار سنجور" **Leopold Seder Segnhor** على لسان "فروبنيوس" **Frobenius** لا يمكن بلوغ المثل الأعلى للإنسانية وآداب السلوك إلا إذا تحدث الناس بعضهم إلى بعض بلغة لا تكلف فيها.

([1]) عاش هذا الفنان اليوناني الأصل الإسباني الإنتاج في النصف الثاني من القرن السادس عشر والربع الأول من القرن السابع عشر. (المراجع).

وقد يكون في هذا القول غلو في تبسيط المسألة فإن في البلاد التي لا تفرق بين ضمير المخاطب الفرد وضمير جمع المخاطب لم يتم بلوغ المثل الأعلى للإنسانية وآداب السلوك. إن هناك احتمالا واحداً باقيا. يجب أن تكون الصداقة مبنية على المساواة مع حرية الاختيار ومع احترام الشخصية وحمايتها.

الأمم المتحدة:

إن معظم الشعوب وقد أيقظتها تعاليم الديانات الكبرى وعرفت قرب المسافة اليوم بين كل شعب وما يجاوره من الشعوب وأحست بما يهددها من حرب ثالثة واستشعرت الخوف من الدول الحديثة التي تستطيع القضاء على المدنية، قد اتفقت بعد الحرب العالمية الثانية على تنظيم الأمم المتحدة. وكان من أعظم أعمال الأمم المتحدة أن أصدرت إعلان حقوق الإنسان في ديسمبر سنة ١٩٤٨ وقد تقرر به في البندين الأول والثاني أن "كل الناس ولدوا أحرارا ومتساوين في كرامتهم وحقوقهم. إنهم وهبوا العقل والضمير فيجب أن يعامل كل فرد غيره بروح الأخوة دون أي تمييز لا من حيث الجنس ولا اللون ولا اللغة ولا الدين ولا العقيدة السياسية أو غيرها ولا من حيث الأصل الوطني أو الاجتماعي ولا من حيث الغنى أو الميلاد. أو أي أساس آخر"، وبناء على البند السابع تقرر "أن كل الناس سواسية أمام القانون ولهم– دون أية تفرقة– حق في حماية القانون" وليس هذا الهدف في حاجة إلى أي تعليق، فإذا ما تحقق فلا داعي لأن يقرأ أحد هذا الكتاب إلا على أنه معلومات تاريخية.

الفصل الثالث

الكنيسة والمسألة العنصرية

ومن هو قريبي "إنجيل لوقا- ١٠- ٢٩-"

ربما يثير دهشة البعض إذا علموا أن هذا الموضوع فيه مجال واسع للبحوث المطولة ولا يمكن أن نكتفي فيه بأن نقول بإيجاز إن الكنيسة عامة والكنيسة المسيحية بخاصة تؤمن بالمساواة والأخوة بين كل الناس، وفي أحد الكتب التي نشرتها اليونسكو عام ١٩٥٣ يقول "كونجار" **Congar**: "لا تقر الكنيسة أية فروق أو أي تمييز بين الأجناس البشرية. إن قوانينها تعارضها وتؤيد الوحدة الكاملة في الأسرة الإنسانية ومن سوء الحظ قلما راعى ملايين الناس هذه الحكمة وفي بعض الأحيان لم يجعلها كبار رجال الكنيسة هدفا لهم ولم يعتبر الجنس البشري أسرة واحدة في جميع الأزمنة، فمن الناس من كان يفسر هذه العبارة تفسيرا خاصا ولا يزال فيهم الآن من يفسرها تفسيره الخاص كذلك".

وفي إحدى نشرات اليونسكو في المجموعة السابقة عينها[١] يقول

([١]) هناك مجموعتان ممتازتان أصدرتهما اليونسكو: الأولى المسألة العنصرية والفكر الحديث والثانية: المسألة العنصرية والعلم الحديث.

وكل منهما تحوي عددا من الكتيبات التي يعرض كل منهما لجانب من جوانب المشكلة وقد طبع اليونسكو المجموعة الثانية في مجلد واحد صدر عام ١٩٦٠ بعنوان: **Le racisme devant al science** (المراجع)

"فسرهوفت" **Visserhooft**: "قد حدث في بعض عهود تاريخ الكنيسة المسيحية أن أصيبت العقيدة الأساسية بوحدة الجنس البشري بهزة عنيفة بما استحدث فيها من تعاليم ونظريات قضت بنشوء شيء من التراتب في الأجناس البشرية". ويقرر "كونجار" أن جميع الكتاب الذين درسوا المفاهيم العنصرية العديدة في التاريخ أجمعوا على أن ينسبوا نشأة التفرقة العنصرية إلى عصر الاستعمار الذي حدث إبان القرن السادس عشر. ومعنى هذا إما أن التفرقة العنصرية والتمييز العنصري كانا غير معروفين قبل القرن السادس عشر في البلاد المسيحية وسائر البلاد الأخرى، وإما أننا أمام مسألة قديمة العهد ولكنها لم تطبق إلا في القرون القليلة المتأخرة على لون البشرة باسم "المسألة العنصرية"، وقبل أن نحل هذه المسألة يجب أن نحدد في عقولنا تحديدا دقيقا الفرق بين التفرقة العنصرية كما نفهمها من الناحية النظرية وبين التمييز الذي تسببه حالة الحرب، ففي الحالة الثانية توجد– لا شك– علاقة عدائية بين جماعتين كانتا في نظر كل منهما متساويتين في الظروف العادية. والتمييز إذا أريد تعريفه في مثل هذه الحالة أن هو إلا ظاهرة مؤقتة ولا محل له في هذا الكتاب فنحن نعني بالتمييز الدائم الذي يوجد في حالتي الحرب والسلم على السواء وهو الذي يتضمن التمييز المصطنع والعزل والازدراء.

ولما كانت التفرقة تتضمن تمييزا بين ما هو سام وما هو دون ذلك أو بين ما هو طيب وما هو خبيث، يمكن أن نجد أصله في جنة عدن "لست

أنا الخبيث ولكنه هو أو هي"[1] ولعل هذا الشعور بالتمييز هو الذي كان خطيئة الإنسان الأصلية ولو أننا قد نجد تفسيرا حيويا في الشعور القبلي عند بعض الحيوانات على أساس من الإحساس العشائري فبعض الطيور مثلا تتألف في جماعات حسب ألوان ريشها. وهذه دلالة واضحة بأن هناك فاصلا حيويا (بيولوجيا) وجد قبل العصر التاريخي الذي ساد فيه الاعتقاد أن الإله لابد أن يكون ذكرا لا أنثى، وهي تُّعد في مرتبة أدنى من مرتبة الذكر،

---

(1) سفر التكوين. الإصحاح الثالث. الآيتان ١٢، ١٣ ونص الآيتين "فقال آدم" المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. قال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية عرفتني فأكلت". هذا ويميز هنود "الباركاري" **Bakari** في البرازيل بين كورا **Kura** التي تدل على "نحن" "والطيب" وبين كورابا **Kuraba** التي تدل على هم "والغريب" "والخبيث".

طوابع البريد وعلاقات الشعوب













أصدره صندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفل

وله القوامة وهو بهذا سيد التكوين ولابد أن يكون هناك تمييز قبل القرن السادس عشر مبني على لون البشرة. والنظام الهندي يشمل شعوبا تختلف في ألوان بشرتها من المتزنجين ذوي اللون القاتم إلى اللون الناصع البياض في الآريين والدرافيديين **Dravidians** ونظام الطبقات لدى الهنود يقضي عدم لمس البارين **Pariahs** على أنهم منبوذون، وهذا النظام يرجع تاريخه إلى يوم أخضع الهندوأوربيون الشعوب التي تقطن فيما يجاور نهر السند، وكانوا يرون أنهم المختارون أو النبلاء، والطبقة العليا كانت طبقة الآريين الذي يرون تفوقهم بسبب لون بشرتهم الناصع، هذا ولو أن نظام الطبقات لم تكن البوذية تقره ولا تعترف بأي تمييز أساسه مولد الفرد[١] ويقارن به تصريح الأمم المتحدة أن كل الناس سواسية في الكرامة والحقوق. فإن النظرية الآرية التي قوامها كفاية الفرد كانت غير منكورة وكان هناك تمييز للطبقة السادسة بين الطيب والخبيث وبين السيد والرقيق.

وفي مصر نذكر أنه كان فيها شعور ضد اليهود قبل عصرنا هذا بوقت طويل وهو ما دعا المصريين إلى قتل كل طفل يلده يهود (ولم ينج من القتل إلا الطفل الذي كان سببا في إنقاذ شعبه) رغما من أن الجدين الأولين لليهود والمصريين (سام وحام) كانا أخوين– وكذلك "هامان" رئيس وزراء قورش أخذ يذبح اليهود في أعداد كبيرة قبل أن يقوم بذلك هتلر بمدة.

وكثيرا ما نرى اليهود أنفسهم وهم فريسة هذا الإيذاء يقومون بالتفرقة بينهم وبين غيرهم كما يدل عليه العهد القديم، فإن فكرة "الشعب المختار"

(١) ولهذا السبب كان على كل من يقبل في دير بوذي أن يتخذ اسما جديدا.

لتدل على شعور بالتفوق على الغير ولو أنها قد تكون وسيلة للدعاية يبررون بها رسالتهم وقد لا تعدو أن تكون وسيلة أملتها الضرورة لاسترداد هيبتهم بعد الذي عوملوا به في مصر، ويبدو أن دعواهم أنهم الشعب المختار كان تاريخها خروج إبراهيم من مصر[١]. لا خروج موسى

طوابع البريد وعلاقات الشعوب





سورينام غانا

لاحظ وضع الأيدي والبلاد التي أصدرت هذه الطوابع

---

(١) سفر التكوين إصحاح ١٣.



طابع بريد يرى فيه العلاقة الطبيعية بين
الشعوب ولاحظ أن الأبيض في المقدمة



علم سورينام الجديد تمثل النجوم ألوان
السكان البيض والسود والسمر والصفر

منها[١]. وقال يهوه لإبراهيم[٢]. وأما إسماعيل (وهو ابن إبراهيم من هاجر المصرية) لقد سمعت لك فيه. "ها أنا أباركه وأثمره أكثره كثيرا جدا وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدي أقيم مع إسحق" (سفر التكوين إصحاح ١٧ الآيات ٢٠، ٢١) وقال محييا رفقه "في بطنك أمتان ومن أحشائك يفترق شُعبان شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد لصغير" (سفر التكوين الإصحاح ٢٥ الآية ٢٣).

وقال الله لموسى[٣] "وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده

---

(١) سفر الخروج إصحاح ٢٠.

(٢) سفرة التكوين إصحاح ١٦: ٣.

(٣) إصحاح ٢٥ آيات ٢٩، ٤٤.

استعباد عبد.. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب التي حولكم". (سفر اللاويين إصحاح ٢٥ الآيات ٢٩، ٤٤).

وليس من المؤكد أن هذه الآيات تعد دليلا قاطعا على أن موقف اليهود كان سببه خوفهم من أصحاب الديانات الوثنية المجاورين لهم. فما على الإنسان إلا أن ينظر إلى إسرائيل الحديثة حتى يجد اليهود البيض الأشكنازيم يعتقدون أنهم أسمى منزلة من اليهود والسفارديم القادمين من الشرق ومن أفريقية[١] وليس الشعور بأنهم الشعب المختار مقتصرا على اليهود، فإن شعب السادة الآريين **Aryan Herrenvolk** في عهد "الرايخ" الألماني الذين شعارهم النسر المحلق في عنان السماء أبناء الآلهة وأبناء وطن الرب لهم نفس الفكرة "تنوهكيا" **Tenno Heika** يعد ابن الله وكانت عبارة "الله معنا" التي هي شعار كثير من الشعوب تعني الله معنا نحن لا مع غيرنا من الشعوب.

ويرى "كنث لتل" **Kenneth Little** أن الإسلام لا يعتبر لون البشرة أساسا للتفرقة وهو يقر أن الاحترام حق لكل الناس الذين أراد الله أن يخلقهم مختلفي ألوان البشرة[٢].

---

(١) الواقع أن اليهود السفارديم قدموا من إسبانيا والبرتغال وهم غير اليهود الذين لم يعيشوا مطلقا في أوربا.

(٢) يرى المسلمون أن من جرأة المسيحيين أن يشتقوا اسمهم من اسم أحد الرسل معتقدين أنه ابن الله ولذلك لم ير المسلمون أن يسموا أنفسهم بالمحمديين نسبة إلى محمد– المؤلف.

إن المسلمين لم يختاروا لأنفسهم اسما وإنما هذا اسمهم في القرآن: اقرأ قول الله تعالى: "إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ" سورة آل عمران. وقوله "وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" سورة الحج: ٧٨– المراجع.

ومع هذا فالمسلمون يفرقون بين المقيمين في "دار الحرب" والمقيمين في "دار الإسلام" وبهذا التعبير لا يعني الإسلام إلا حالة السلام وحالة الحرب فلا أساس إذن للقول بأن هناك تفرقة بين المسلم وغير المسلم.

ويقول "بايران" **Payrenne** أن الشعوب المقهورة كانت تستعبد من مجتمع المؤمنين، وبهذا يقوم بينهما حاجز، وكان الحرم والأماكن المقدسة لها قداستها، وكان يحرسها خصيان وهم رقيق مجلوبون من البلاد المجاورة. وأما حرية العقيدة التي يوفرها المسلمون لأعدائهم المقورين فمردها إلى الرغبة في بقاء المجتمع الإسلامي نقيا ولتوفير عدد من الرقيق غير المسلمين[١] ويرى

(١) وهكذا نرى أنه بينما يعمل المسيحيون على تنصير أرقائهم ليكفروا عما اقترفوا من أخطاء لا يحاول المسلمون أن يدعوا أرقاءهم إلى الإسلام لأن الاحتفاظ بالرقيق لمسلم لا يرضى عنه الله– المؤلف.

يعلق السيد المراجع في هذا المقام بالآتي قائلا:

هنا عدة أسس إسلامية يجدر الإشارة إليها:

١– عموم الدعوة الإسلامية وحض الله المسلمين على دعوة الناس جميعا إلى الإسلام لا فرق بين سيد ومسود. يدل على هذا قول الله تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا" وقوله تعالى: "ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وعَمِلَ صَالِحًا وقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ".

وعندما اشتد إقبال الناس على الإسلام في عهد عمر بن عبد العزيز، وقلت الجزية ذكر الولاة هذا للخليفة فكان رده: لقد بعث الله محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا. إن الإسلام لم يعزل غير المسلمين عن المجتمع الإسلامي بدليل قوله تعالى: "لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"، هناك فرق بين نصوص الإسلام نفسها وبين تطبيق المسلمين لها فأعمال المسلمين ليست حجة على الإسلام وإنما الإسلام هو الحجة عليها، والقول بوجود الخصيان في الحرم أو الحريم لا نجد له أساسا إسلاميا فالإسلام ينهي عن تغيير خلق الله وعن التشويه، ولم يحدث شيء من هذا في عصور الإسلام الأولى ولا قال به مذهب معتمد.

٢– وللأسف خلط المؤلف بين تصرفات بعض المسلمين في بعض العصور وبين نصوص الإسلام، كما استند إلى آراء ليس لها بالإسلام صلة ويمكن أن نجد هذا الاتجاه واضحا عند المؤلف– رغم أن مقدمة الكتاب كتبها السيد ظفر الله خان– في حديثه عن اليهود في فلسطين، فلم يشر أية إشارة إلى ما فعله

"ولتر وولبانك" **Walter Walbank** أن كثيرا من الهنود دخلوا الإسلام هربا من الجزية التي فيها تمييز وتفرقة لغير المسلمين.

هذه الأمثلة تدل على أن التمييز كان موجودا بكل مكان قبل القرن السادس عشر عندما كان التركيب الآراي الدرافيدي لازال مثاليا ولم يبلغ الإسلام والنصرانية ما بلغاه وقتنا هذا من النظرية العالمية(١).

الحامية:

كانت الفقرات السابقة من هذا الفصل متعلقة بشعوب وقبائل ذات لون واحد وقد وضع أساس حاجز اللون في العالم الصغير داخل سفينة نوح وكانت خطيئة "حام" ضد تقاليد الجنس السائدة في القبيلة حينذاك بأن نظر إلى أبيه وهو عاري الجسم(٢) وبهذا حلت عليه اللعنة وقدر عليه أن يكون خادما لإخوته وقد صار الجد الأكبر للشعوب الملونة(٣).

اليهود بالعرب أصحاب الحق الأول في فلسطين رغم إشارته المتعددة إلى ما فعلته النازية باليهود- المراجع.

(١) النظرة العالمية في الإسلام واضحة فيه من أول الأمر ويكفي أن ننظر فيها إلى قول الله تعالى مخاطبا رسوله: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" وكثيرا ما نجد خطاب الله تعالى في القرآن موجها إلى الناس لا إلى شعب أو عنصر أو جنس مثل قوله تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ"- سورة الأعراف وما يذهب المؤلف إليه من أن كلا من الإسلام والمسيحية أصبح لهما وضع متحرر لا نجد له أساسا في أصول هذه الأديان الكبرى، بل الأساس هو النظرة العالمية والمساواة بين الناس جميعا- المراجع.

(٢) رؤية عورة أبيه هذه العبارة يجب أن تفهم بمعناها الحرفي بسبب الاعتقاد في "الحسد"، ولكن هناك من يذهب إلى أن أسطورة "حام" بدأت في عهد داود، وقد فسرت الحرب التي قهر اليهود فيها الكنعانيين على أنها انتقام إلهي من الشعب الذي اشتهر بالعري والاختلاط.

(٣) وفي الديانة الهندوكية أن السودرا **Sudra** المنبوذين خلقهم الخالق ليكونوا عبيدا للبراهما.

ولسنا على يقين من أن "حام" ونسله القريبين قد وصموا كما كانت العادة المتبعة مع المذنبين (قارن ما وصم به قابيل) ومن المسلم به أن السلالة من أبناء حام كانوا أشد سوادا ممن بقوا على قيد الحياة بعد الطوفان وأصبح من اليسير أن نفهم السبب الذي من أجله خلطت الأديان المتأخرة بين الشعوب الملونة والزنوج. وفي كثير من البلاد يعد غير البيض إما مهجنين أو زنوجا، وفي بعض الأحيان يعد كل أهل الملايو والإندونيسيين والزنوج جميعا من السود وهكذا يتضح سبب الخلط بين الأفريقيين من شرق القارة والأفريقيين من غربها، ولكن محاولة تبرير البيض حكم السود ورقهم باستنادهم إلى أسطورة "حام" السابقة مصطنعة وغير مقبولة. وعلى هذا فليس من الأمانة مطلقا أن نعد الحامية مبررا للتفرقة العنصرية وبخاصة لأن الحاميين من الوجهة التاريخية لم يكونوا يوما ما خدما لإخوتهم. بل على العكس، كان هؤلاء الإخوة أبناء سام هم خدمة الحاميين في مصر.

وفي العهد الجديد لا يقر هذا الكتاب المقدس تمييز الأقليات في قصة السامري الطيب. ففي إنجيل متَّى إصحاح ١٠ نقرأ "إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ولكن... إنه السامري"[١] وموقف اليهود الذي ينطوي على التمييز لا يكاد ينسب إلى حالة الحرب الفعلية لأن السامريين كانوا يحسنون معاملة اليهود، بل قد عرضوا عليهم بناء المعبد. الواقع أن سبب تمييز السامريين أنهم حنقوا عليهم لأنهم لم يخلصوا

(١) تراجع قصة السامري في إنجيل لوقا الإصحاح ١٠ آيات ٢٣- ٣٧- المراجع.

لدينهم ولفقوا بينه وبين غيره من الديانات إن "الدين الوحيد الصحيح"، الدين الذي هو خير من جميع الأديان لم يؤمنوا به. فالتمييز الذي كان بين اليهود والسامريين إذن كان مسألة تمييز عنصري وكان لا يقره مطلقا الكتاب المقدس الذي جاء فيه إن الله "خلق كل الخلق من نفس واحدة ليعمروا سطح الأرض كلها" ومع هذا فتتمة الكلام فيه "إلى أجل مسمى وفي مقام محدود".

المسيحية:

إذا أردنا تفسير تطور المسألة العنصرية بين المسحيين يمكن رسم عدد من الدوائر تمثل الأولى المسيحية في بلاد البحر الأبيض وتتسع الدائرة الثانية حتى تشمل باقي أوربا والثالثة إلى الشرق الأدنى والشرق الأوسط والرابعة للشرق الأقصى[1] والخامسة إلى الأمريكيتين والسادسة تشمل أفريقية.

الدائرة الأولى:

كان المسيحيون في القرن الأول الميلادي من القلة بحيث لم يكن من المتوقع أن يكون بينهم أي لون من التفرقة العنصرية. ولم يكن لمعتنقي الدين اليهودي، المسيحي أن يعادوا الساميين، والعالم السامي مهد دينهم. ومع هذا فقد كان الساميون في منطقة البحر المتوسط من قديم الزمان قبل

---

(1) إن ذكر الشرق الأدنى والشرق الأقصى يقتضي اعتبار بريطانيا في وسط العالم وفي العهد الحاضر لا يعجب الوطنيين في بلاد الشرق أن يحدد موقع بلادهم جغرافيا بالنسبة إلى بلد أم وليس هؤلاء على حق نظرا إلى أن تحديد الأمكنة يقوم على أساس بعدها عن خط الصفر أي في جرينتش.

مولد المسيح مصدر تهديد لسواهم من الشعوب، فالفينيقيون سكان المنطقة التي تعرف الآن بلبنان استعمروا شمال أفريقية وأسسوا قرطاجنة وكانوا يهددون سلامة روما ولم يقض على خطرهم إلا بعد ثلاث حروب، وفيما كتب "تاسيتوس" "وسنكا" **Tacitus- Seneca** يظهر لنا شعور الغرب ضدهم في تلك الأيام وربما أثبت البرابرة ذوو البشرة السمراء وجودهم أيضا في تلك الفترة، ومن المعروف أن لفظ "البربر" مشتق من كلمة يونانية استعملها "هومر" قبل مولد المسيح بخمسمائة عام لأن لغتهم التي لم يفهمها كانت أشبه بثغاء الغنم ولهذا كان من الأكثر احتمالا أن البربر أول من أطلق عليهم هذا الاسم **Barbaroni** وأن هذا الإطلاق– على هذا الأساس أقدم من إطلاقه على "المتبربرين" **Barbarians** القادمين من الشمال، ومن حسن حظ "هومر" أنه لم يعلم أنه ولد في أرض تركية(١) غير يونانية وأنه لو ولد في أيامنا هذه لرطن بغير اليونانية، ومع هذا فأرسطو الذي ولد بعده بخمسمائة عام كان يرجو أن يكون كل من ولدوا خارج حدود بلاد اليونان عبيدا لليونان الذين ادعوا أنهم وحدهم أصحاب الفكر.

الدائرة الثانية:

تختلف المسيحية بعد انتشارها التدريجي في أنحاء أوربا عن عطفها على اليهود، فهم في رأيهم قد قتلوا المسيح وعرف عنهم أنهم يقدمون أبناءهم قرابين توصلهم إلى الجنة، وفي القرن العاشر كان لليهود حي خاص في

---

(١) لعل أكثر البلاد احتمالا لمولد "هوميروس" بلدة أزمير.

القسطنطينية، وكان محرما عليهم في كثير من البلاد أن يتزوجوا بالمسيحيات أو يؤدوا الشهادة ضدهم. وكثير منهم حرقوا في برلين في القرن الخامس عشر. وأما فينا فقد طهرت من اليهود جميعا وكانوا متهمين بتثبيط غيرة الصليبيين ولهذا منعوا من الاتصال بهم. وفي سنة ١٥٥٥ أنشأ البابا "بولس الرابع" لهم معسكرات تغلق أبوابها ليلا، وكان غير المسحي خارجا على القانون. كتب "لاندمان" **Landmann** أن الفلاحين الإيطاليين ما زالوا يضربون حميرهم ويصيحون **Non e cristiano** (يا غير المسيحي!).

الدائرة الثالثة:

وعندما استتب أمر الدائرة الثانية في أوربا حاول المسيحيون أن يحملوا الإنجيل معهم إلى الشرق ومن رأي "بانيكار" **Panikkar** أن ذلك لم يكن إلا وسيلة لإخفاء غرضهم الحقيقي وهو البحث عن مجال حيوي. **Lebensraum** خارج أوربا وبدأت الحروب الصليبية والحروب الدينية، ولم تنته تلك الحروب التي لا طائل تحتها ضد من لم يؤمنوا بالديانة الجديدة من الشعوب الأخرى إلا عندما وقع الخلاف بين المسيحيين أنفسهم إبان الإصلاح الديني، فعادوا إلى جبهة الحرب الدينية في بلادهم.

الدائرة الرابعة:

في تلك الأثناء هيأت الاستكشافات ميدانا للدائرة الرابعة في الشرق الأقصى، ومع شدة الأهوال التي كانت تصحب الحروب الصليبية لم يكن هناك شعور قوي ضد التبشير، حتى أن كثيرا من الناس أمكن اعتناقهم للنصرانية رغما من قوة الديانات التي كان المبشرون يعملون ضدها.

ورغما من مرور عدة قرون على أعمال التبشير واعتناق كثير من الناس للنصرانية، فقد كان هناك ما خيب الآمال؛ إذ لم يجد كثير من البوذيين والهنود تعاليم النصرانية أكثر إغراء من ديانتهم، ولم تزدهر بذور النصرانية وبخاصة عندما كان يسقيها المبعوثون البيض بالآراء الغربية، وفوق ذلك كان الأسيويون يرون في المبشرين عملاء لنشر العدوان الثقافي الغربي، وقد حملوا معهم ثمار المدنيات الأجنبية إلى أوربا كأنها غنائم الحرب، وفضلاً عما لقيته النصرانية من مقاومة الديانات المختلفة في الشرق الأقصى وجدت نفسها وجها لوجه أمام الإسلام الذي كان يكسب المواقع أمام النصرانية التي كانت مشوبة بمدنية الرجل الأبيض. وقد أجاز البابا "نيقولا الخامس" للبرتغاليين تنصير الملحدين حتى من سبق إسلامهم ولكن الملحدين أنفسهم يخشون الدخول في النصرانية على أساس أنها أداة للاستعمار. ولقد ظل خوفهم هذا مستترا مدة ثلاثة قرون وأحيانا كانت لهم الرغبة في أن يتنصروا خشية الانتساب إلى الطبقة الاجتماعية الدنيا حتى أخذت قوة الغرب تضعف في آسيا فارتد كثير من الأسيويين عن ديانتهم المسيحية[١]. وفي الصين خاصة، لم تلق الديانة المسيحية أي قبول لا هي ولا المدنية الغربية الممقوتة.

وعندما قارب عهد الاستعمار على الانتهاء دعت "الخرافة" المسيحية القائلة بأن آسيا وأفريقية يمكن تنصيرهما إلى تأسيس الكنيسة الفتية **Young charch**؛ حيث كان الآسيويون والأفريقيون أنفسهم يبشرون

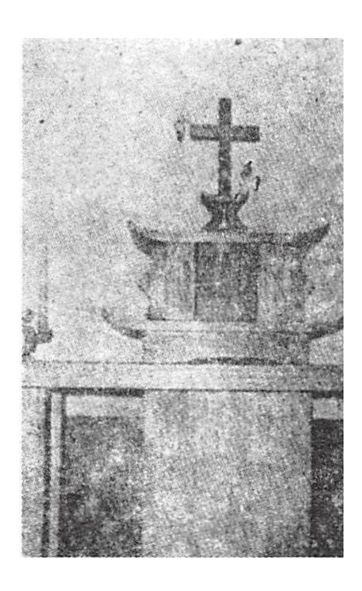
---

(١) كان من أسباب انتشار الإسلام بين الشعوب غير الإسلامية اختلاط المسلمين بأهالي البلاد وإقامتهم.

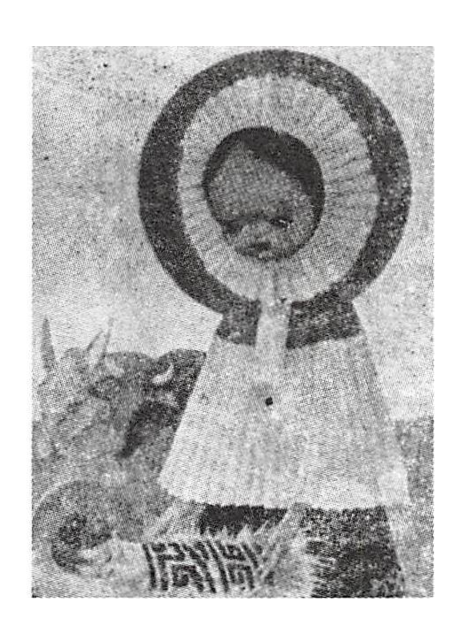
بتعاليم الإنجيل وكان لديهم ميل قوي لتمثيل الرب في صورة أهل البلاد الوطنيين. وفي كتاب "أرنوليمان" **Arno Lehman** مائة وسبعون صورة ذات ملامح آسيوية وأفريقية للمسيح والسيدة العذراء والواقع أن الرجل الأسود لم يكن يهتم بالصور الدينية ولكن همه كان منصرفا للخطوة بما يحظى به الرجل الأبيض من مكانة. وهذه كانت أيضا الحال في أفريقية ولهذا سأستعير بعض الأمثلة من الدائرة السادسة، ولقد قال أحد أهالي الكنجو إن الأفريقي ليفضل الرجل الأبيض ذا القلب الأبيض على التماثيل السوداء التي يصلي في حضرتها، وأصبح وضع الكنيسة في المستعمرات السابقة أكثر مرونة كما علمت من حديثي مع أحد المبشرين.

ومن حديثه أن كثيراً من الملونين أصبحوا شديدي الحساسية لكل ما يريد الرجل الأبيض أن يخبرهم به، وحتى وهو على منبر الكنيسة كان على القسيس أن يستبدل بقوله "أخبركم" قوله "أهبكم" وقد حلت كلمة "أبرشية" محل كلمة "إرسالية".

وفي مدى بضع سنوات تحولت القيادة في عهد الاستعمار إلى "مشاركة في الطاعة" ولأول مرة أصبح الأبيض وغير الأبيض جارين بكل ما يحمل



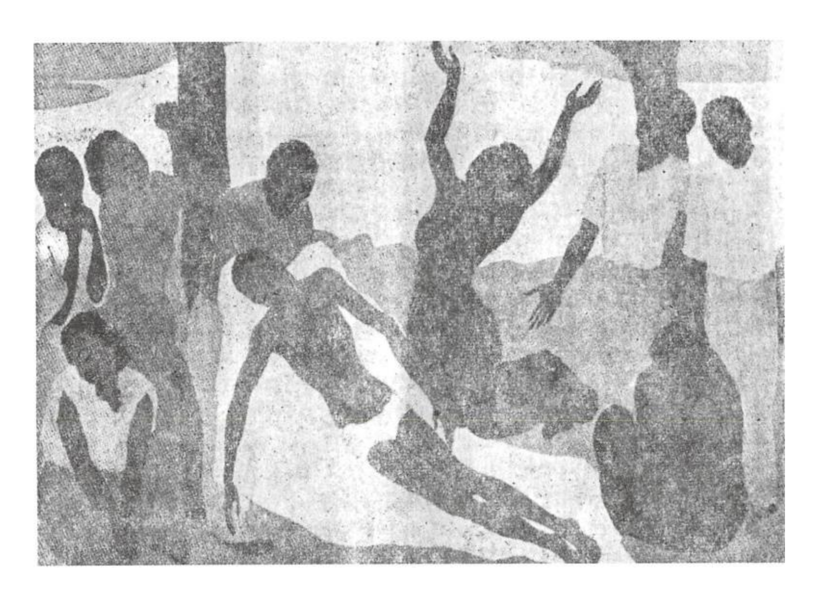
مذبح تصميمه مستوحي من
الكرسي المقدس عند الاشانتي



بطاقة مكسيكية لعيد الميلاد تمثل صورة
السيد العذراء عند الهنود الحمر



تمثال للسيدة العذراء كما تصورها البانتو



المسيح الأسود "لنولا هاترمان" في متحف المجلس بأمستردام

لفظ الجوار من معنى، وهكذا بعد ألفي عام من قيام المسيحية وبعد أربعمائة عام من الفرص المضاعة في المستعمرات يمكن أن يقال أن الهدف أمكن الوصول إليه في الساعة الأخيرة وسنرى في نهاية هذا الفصل إذا كان هذا صحيحا أو غير صحيح.

الصور المقدسة والوصية الأولى:

عندما توطدت الكنيسة الفتية أخذت تنتج عددا من الصور تمثل القديسين كأفراد من الشعوب المختلفة، والصعوبة التي نتجت من عمل هذه الصور أنها قربت المسافة التي تفصل بين الإنسان وربه إلى مثل المسافة التي بينه وبين أحد جيرانه، وكان هذا التطور متوقعاً؛ حيث لم يعد الإله الأبيض قادرا على اجتذاب الرجل الأسود وزيادة على ذلك لم يقم أي اعتراض على هذا التبديل العنصري في تمثيل الإله الذي اختاره الرجل

الأسود، وأن الرجل الأبيض مثل الإله على صورته، ولكن الذي يؤسف له أن هذا الاتجاه لم يحدث إلا متأخرا، ولما كان الأهالي عرفوا الإله– أول ما عرفوه– إلها أبيض فلا لوم عليهم إذا نظروا إلى الإله الجديدة في شيء من الريبة وقد أخفى شكله وقدمه لهم الرجل الأبيض في المستعمرات السابقة. وإذا أريد أن ترفع هذه الريبة وكانت المسيحية قد غيرت فعلا بشرتها البيضاء وطبيعة الأشياء تقتضي أن يتبع وجود القديسين السود وجود بابا أسود[١]. وإذا كان هذا التطور صحيحا ومنطقيا فهذا يحتم تخلي الإله عن صفة الذكورة التي ترتبط به. وقد تم هذا فعلا بتقديس السيدة العذراء. إن مشكلة العنصر ولون البشرة وجنس الإله وكلها بعض مسائل الكنيسة يمكن القضاء عليها بالفراغ المقدس الذي نجده في مسجد المسلمين. فهناك يهرع آلاف من الناس إلى الله المنزه عن الجنس واللون حقا "لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض" (سفر الخروج الإصحاح العشرون).

الدائرة الخامسة:

امتدت الدائرة الخامسة للمسيحية إلى الدنيا الجديدة وكانت المقاومة فيها أقل منها في الدائرة الأولى واختفى آلهة قبائل "الأزتك" و"ألمايا" و"الإنكا" **Aztecs- Mayas- Incas** على أثر عرض الديانة الجديدة، وعمد آلاف من الهنود في وقت معا، وجاء الصليب للأهالي بالخلاص إذا

---

(١) في السنوات العشرين الأخيرة عين كثير من الأفريقيين والآسيويين كهنة في الكنائس وبلغ عدد الكهنة الوطنيين ٦٠٠ في آسيا و٢٠٠٠ في أفريقية ووصل أحد الأفريقيين لأول مرة إلى وظيفة كاردينال سنة ١٩٦٠.

لم يخلصهم السيف، وأحيانا كان الصليب والسيف يعملان معا جنبا إلى جنب.

وأصبح "حام" مصدر كل الشرور عند الرقيق الزنجي وكان عليه أن يخضع لعملية التعميد ولم يكن له في ذلك أقل خيار. وكان الخلاص قريبا ممن ورثوا لعنة "حام" إذا سلموا أنفسهم لرق العبودية. وحتى بعد إلغاء الرق لم تقم الكنيسة بأي حل لمسألة الزنوج بل زادتها تعقيدا بما كان فيها من انقسام، وكان معظم الزنوج في أمريكا الشمالية يعتنقون البروتستانتينية، وتبع الكنيسة الكاثوليكية معظم زنوج أمريكا الجنوبية، وفضلا عن ذلك فإن المسيحية بين زنوج أمريكا الشمالية كانت شيعها تبلغ المئات(١). وكان في شيكاجو حوالي ٥٠٠ مذهب. ويمكن أن يعزى هذا الانقسام إلى أن كل فريق يرى نفسه هو المختار وأنه يضمن له الإتباع ببناء كنيسة خاصة وفي بعض الأحيان عندما يملأ القلق الروحي قلوب بعض الناس يبحثون عن الخلاص في نواح متعددة، وهذا يدعو إلى كثرة المذاهب الدينية وحاول الباحثان "سمسون" و"ينجر" Simpson & Jinger البحث عن تفسير لهذا الوضع في الحاجة الطبيعية عند الزنوج إلى الدين وهما يقسمان الفرق الدينية إلى أربعة أقسام:

كنيسة Ecstatic ونصف توجيهية Semidemonstrative وسمعية deliveratvei وعلاجية Liturgical على أساس من طبيعة الإتباع مثال ذلك أن معظم الطبقات الدنيا من الزنوج من البابويين والطبقة الوسطى من

---

(١) لم يكن التعدد الكبير في الكنائس مقصورا على أمريكا ولا خاصا بالزنوج وحدهم. فحتى قبل حركة الإصلاح الديني كان في أوروبا عدد غير قليل من المذاهب المسيحية.

المتوديست والبرسبتريان **Nethodist Presbyterian**.

أما من حيث أن الزنجي ميال إلى شدة التدين وهو ما جعله سهل الانقياد إلى المسيحية، ومن حيث أنه واقع دائما كما يقول "هيرزكوفتسي" **Herskovitz** تحت تأثير الغيبيات يجب أن نذكر أن هذا ليس مقصورا على الأفريقيين. ومن المحقق أن الآلام الشديدة التي يقاسيها الناس وبخاصة تعذيب أجسادهم مما يدعو إلى اعتناق كل ضروب العقائد ومن هنا يمكن أن نفهم سر قبول الزنوج لفكرة صلب المسيح بوصفه المخلص لهم ورفعه من قبره(١).

ولا يزال فاصل اللون موجودا في كثير من الكنائس الأمريكية. يقول "لوتشر" **Loscher** أن البروتستنانت يبدأون عادة بمنع قبول الزنوج ولكن بمجرد دخولهم تباع الكنيسة إلى أصحاب المذاهب الزنجية، وفي الكنيسة البرسبتيرية **Presbyterian** مجلس خاص لكنائس الزنوج في الولايات الجنوبية وكنيسة الميثودست **Methodés** ويضم معظم الأتباع لها مجلس قضائي خاص يعمل على أساس التفرقة العنصرية، وفي الأيام الأخيرة أخذت الكنيسة الرومية الكاثوليكية تهتم بزنوج أمريكا الشمالية ووقفت موقفا حازما ضد كل تفرقة أو تمييز عنصري. وأنشأت في كل ولاية مجالس مختلطة تضم جميع الأجناس. ومما كتبه "توينبي" أن الكنيسة الرومية

---

(١) كثيرا ما يعتنق الزنوج النصرانية لإخفاء وثنيتهم ولا يكون قديسوهم في الواقع سوى أصنام تحمل أسماء القديسين المسيحيين، ومن جهة أخرى تسمح الكنيسة الكاثوليكية البعيدة النظر – في بلاد المنطقة المدارية التي تسير فيها المسيحية سيرا بطيئا – ببعض الطقوس والآراء المخالفة للمسيحية أن تبقى بجانب الطقوس والآراء المسيحية (هانتنجتون **Huntington**).

الكاثوليكية تخلصت من التفرقة العنصرية في جميع أشكالها، ولم يمض زمن طويل حتى أذنت الكنيسة الرومية الكاثوليكية بالزواج المختلط، ولكن أتباع "كالفين" **Calvin** لا يزالون متمسكين بالتفرقة العنصرية، ومن رأيه أن البروتستانت هم أخر من أوقف تجارة الرقيق وأن التفرقة العنصرية أقوى ما تكون في البلاد البروتستنتينية.

وليست التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة مقصورة على خلاف اللون إذ يقال إن الشعور المستتر ضد السامية **Anti Semitism** يلحظ في الفنادق المحجوزة، وهناك صورة أخرى من التفرقة يمكن إبرازها في الفنادق التي تعلن: "مرحبا بضيوفنا المسيحيين" أو "الكنائس قريبة منا".

الدائرة السادسة:

تشمل الدائرة السادسة المسيحية قارة أفريقية، وتنقسم إلى المنطقة الإسلامية في الشمال والكاثوليكية في الوسط والغرب والبروتستانتينية الشديدة المعارضة في الجنوب. وبين هذه الديانات الثلاث تنافس على هداية نفس الزنجي وقد كتب "فسر هوفت" **Visser Hooft** يقول: "عندما اتصلت أمم غرب أوربا بالشعوب الأفريقية وحكموا بلادهم كان بعض رجال الدين في كل من أفريقية وأوروبا يظن أن هذا له ما يبرره. قال ومما يريح نفوسنا أن نقرر أن هذا الخطأ لم يستمر بلا معارضة، وأن من الصعب أن يوجد الآن رجل واحد من رجال الدين المخلصين يحاول أن يدافع عن مثل هذه النظريات الخاطئة" ولكن "مالان" **Malan** وهو عالم ديني ورائد كنسي قال: "إن عقيدة الأفريكاني وهم من البوير البيض في

جمهورية جنوب أفريقية– التي لا تتزعزع أنه إذا أراد أن يكون عمله متفقا مع رسالته الحقة في الحياة. وهي إيصال الإنجيل إلى الوثنيين يجب أن يحتفظ بشخصيته العنصرية" ومع هذا فلو أراد الإنسان أن يرى فاصلا رسميا للون في كنيسة جنوب أفريقية فلن يجده، ومن سوء الحظ أن ذلك ليس راجعا إلى أنه غير موجود بل لأن الإعلانات الدالة على التفرقة مثل: "الأفريقيون ممنوعون" لا حاجة إليها، والتشريعيات العنصرية فيها نص كنسي يبيح للوزراء المسئولين عن الشئون الكنسية في ظروف خاصة عدم السماح بدخول غير البيض كنائسهم.

ومع هذه فهناك تغيير طفيف أخذ يحدث تدريجا؛ كتب "هدلستون" **Huddlestone** في رأس سنة ١٩٥٦م "سيجيء اليوم الذي يسأل فيه الأفريقيون في تحد هل المسيحية كلها لا تعدو أن تكون آلة في أيدي السادة البيض؟ وهل لا تكون هناك مسيحية زنجية؟ وألا يوجد دين غير المسيحية يستحق البقاء؟ وفي نفس الأثناء قامت منافسة تسترعي الانتباه بين المسيحية والإسلام في وسط أفريقية، ومن رأي "ثرفول" **Threfall** أن الروح الحربية لدى المسلمين تشوق الأفريقيين أكثر من طبيعة المسيحية الهادئة المحبة للسلام[1]. والتي ينظر إليها على أنها خدعة كاذبة من أساليب

---

(1) ليس في الإسلام روح "حربية" كما يدعي المؤلف أو ينقل دون تعليق، إذا كان يقصد بهذا عدوانا، ونصوص القرآن واضحة في عدم الإكراه كقوله تعالى "لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ" وقوله " لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ". أما المحافظة على الحق ونشره فأساس لصلاح المجتمع والإنسانية دن عدوان، بل لرد العدوان وتأمين السلام المراجع وفي هذا يقول الله تعالى: "وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ".

التدخل، والإسلام كدين أيسر من الديانات الأخرى وأكثر تماسكا، ويسمح بتعدد الزوجات، فضلا عن ذلك فهو لا يقضي بتغير عادات من يدعون إلى دخول الإسلام أو تقاليدهم أو قوانينهم الأخلاقية، وللإسلام ميزة أخرى أنه دين أفريقي آسيوي ليس مجلوبا من خارج هذه البلاد بينما المسيحية والكاثوليكية بخاصة لها رؤساؤها البيض في أوربا، وفي تصرفات الكهنة البيض ما يدل على أنهم خلفاء الحكام البيض السابقين. وأخيرا والإسلام، ومقره في بلاد غير البيض، يعد الدين الممثل لغير البيض، والإسلام لا يقيم ما يفضل بين رجل الدين والرجل العلماني "المدني" وتعاليمه ليست معقدة، والمسلمون كما سبق القول لا يعيشون في معزل عن بقية الوطنيين بل يخالطونهم، وعدد المسلمين في أفريقية الآن يقرب من مائة مليون، وهناك أصول كبيرة للإسلام من صدق بها كان من المسلمين. وهذه الأصول هي الإيمان بالله وباليوم الآخر وبمحمد خاتم الأنبياء، وفي العالم الآن يقف القرآن أمام الإنجيل بنسبة من الأتباع تعادل ٣: ١.

وهناك صور حديثة يمثلها انتشار الأحمدية ونشاطهم التبشيري(١) وإذا

---

(١) الأحمدية هم أتباع "مرزا" غلام "أحمد القادياني" وهم في الواقع ليسوا صورة جديدة للإسلام كما يقول المؤلف فمصادر التشريع الإسلامي معروفة واضحة وهي كتاب الله وسنة رسوله محمد "ﷺ" والمصادر الأخرى التي قال بها علماء الأصول كالقياس والإجماع تدور في فلك الكتاب والسنة ولا تخرج عنهما وبهذا المقياس يمكن أن توزن جميع المذاهب ويتبين مدى استقامتها أو انحرافها.

والأحمدية أتباع "مرزا" "غلام" "أحمد" فريقان: فريق يقول أنه رسول يوحي إليه وأنه المسيح الموعود دون تأويل وأن من يشك في صحة نبوته ورسالته وأنه المسيح المنتظر فهو كافر، وفريق آخر يقول إنه كان مجددا ومصلحا ولم يكن نبيا بالمعنى الاصطلاحي ولكنه محدث ملهم وأنه كان يتبع دين الإسلام وتعاليمه وهؤلاء هم الأحمدية اللاهورية. راجع كتاب حاضر العالم الإسلامي: الهند، وهو مجموعة

أريد للمسيحية أن تنتشر وألا تفوقها الديانات الأخرى في العدد فعليها أن توجد ديانة مبسطة وأن تبدأ في نشرها.

التفرقة الدينية في أوربا:

ظلت الكنيسة مدة طويل تعتقد أن دينها هو الدين الحق وأن عليها أن تنشره بين من لا يدينون به. إن الشعوب التي لا دين لها أو التي تتذبذب بين دين وآخر كانت تعد في منزلة دون منزلة المسيحيين، وهكذا نبتت بذرة التفرقة الدينية في أوربا ضد من لا يدين بالمسيحية، ولا يزال هناك ميل في كثير من المدارس الأوربية إلى عدم تعليم أبناء غير المسحيين. ومع أن الأساطير القديمة لها مكان في مناهج التعليم فإن الشباب الأوربي– حتى في البلاد التي بها رعايا غير مسيحيين– محكوم عليه بأن يجهل جهلا تاما كل ما يتصل بالإسلام البوذية والهندوكية وعلم النفس لدى الشعوب البدائية وحكمة الشرق. والقرآن ليس محرما باعتباره أحد هذه الممنوعات فحسب، بل يحرم بنص صريح في القانون الرومي الكاثوليكي. ولقد عاش آلاف من الأوربيين في البلاد المدارية أعواما دون أن يقتبسوا منها إلا قسطا بسيطا من الجغرافيا المحلية الأولية، وقد ظل كتاب "ألف ليلة" مدة هو المرجع الوحيد لما هو "غير أوربي"، وكان سكان المستعمرات يلقنون دروسا في مدينة البلاد التي تتبعها المستعمرات وفي جغرافيتها، ولكن أبناء الأوربيين المقيمين بهذه المستعمرات كانوا يجهلون جهلا تاما الديانات العظمى التي يدين بها غير المسيحيين.

المحاضرات التي ألقاها الأستاذ "محمد حبيب أحمد" بكلية أصول الدين. مطبعة الأزهر ١٣٦٤– ١٩٤٥– في الصفحات (١٤، ١٥) وقد عرض سيادته للمذاهب الإسلامية في الهند. (المراجع).

ولو أن هذه التفرقة العنصرية لم تصل إلى هذا المدى البعيد فلربما عرف الأبيض شيئا عن جاره، وعرف أي إنسان ذلك الجار، ولربما عندما فقد كل المستعمرات التي حصل عليها لم يكن ليفقد معها كريم الشعور.

ومن رأي "بيرن" **Pirenne** "وتوينبي" **Toynbee** أن الاعتقاد بأن المسيحية هي الديانة الصحيحة الوحيدة هو الذي مكنها من الاحتفاظ بمكانتها بين عدد عديد من الديانات الأخرى، ولكن من العسير أن نقرر إلى أي مدى كان عليها أن تنافس غيرها من الديانات في أوربا منذ القرن الخامس عشر إلى الوقت الحاضر.

وإذا نظرنا من الجانب الآخر نجد أن سوء فهم الرجل الملون للرجل الأبيض هو أثر لنظره إلى البيض جميعا نظرة واحدة، ودمغهم جميعا بوصمة واحدة، وهذا ناجم من الاعتقاد بأن الرجل الأبيض- وقد أشرب تعاليم المسيحية منذ الصغر- هو لا ريب مسيحي صحيح الإيمان، وهو شبيه بالاعتقاد بأن كل من ليس أبيض البشرة هو وثني أو من أكلة لحوم البشر. وإننا لنؤكد- ولا غلو مطلقا في هذا التأكيد- بأنه لا يوجد أي أساس لاعتبار أية حركة غربية مهمة هي في الوقت نفسه حركة مسيحية حتى باعتبارها تطبيقا عمليا للتعاليم المسيحية حتى يحين الوقت الذي تكون فيه العقيدة المسيحية أساسا لكل قول وكل فعل صادر من الرجل الأبيض، وعلى هذا ليس من الحق أن نلوم المسيحية أو الإسلام على ما يصدر عن الحكام من أعمال سياسية خاطئة أو سخافات أو مظالم، كما يقول "وندرو سويتمان" **Windrow Sweetman**: "إن النظرة العالمية اليوم لا يمكن أن تقارن بما كان عليه منذ خمسين سنة".

التحرير:

لقد تساءلنا من قبل– هل بلغت المسيحية هدفها "في الساعة الأخيرة" بعد ألفي سنة من بدء الرسالة المسيحية وبعد أربعمائة سنة من التبشير في أسيا وأفريقية. وهل نحن فعلا في الساعة الأخيرة؟. أما من حيث الكفاح ضد الإسلام فلا شك أن الجواب بنعم، وأما من حيث التحرير، أو بعبارة أصح "فك عقدة" البلاد المحكومة فالجواب مختلط[1].

والرأي السائد اليوم في المستعمرات السابقة أن المستعمرين أخروا عامدين تقدم الشعوب المحكومة. وإذا كان ذلك كذلك فأي دافع أيقظ الوطنيين ونبههم إلى هذه الحقيقة حتى يحدثوا شيئا من التغيير، ولمن أو لأي شيء تنسب هذه البلاد المتأخرة فضل تحريرها من تلك المحرمات الوثنية العديدة التي كانت تمنع أكثر مما تسمح، والتي كانت سببا في حالة الخمول الثقافي التي كانت عليها البلاد قبل قدوم المستعمرين بوقت طويل. الحقيقة أن المسيحية والإسلام اللذين ينسب إلى دعاتهما تعطيل التقدم الوطني كانا هما العاملين الفعالين في القضاء على هذه المحرمات، ولو أن ذلك تم بغير الأسلوب الذي أرادوه، وما تكاد قلة من أسيا وأفريقية أن تهتدي إلى الدين القويم أو تعرف المدنية الغربية إلا وتقود شعوبها إلى التحرر الذي يسمى بالاستقلال السياسي. لقد عاد المسيح ثانية ولكنه لم يعد بالصورة التي كانت منتظرة. ولمن ظل مترقبا عودته كانت أربعمائة عام فترة طويلة. ولكنها بالقياس إلى فترات التاريخ لا تزيد على حياة الدولة الرومانية.

---

(1) لقد تطور الوضع في العالم كله بعد عام ألف وتسعمائة وستين واستقلت معظم دول أفريقية وكانت أوسع مواطن الاستعمار. وزاد عدد دولها المستقلة على الثلاثين في الوقت الحاضر– المراجع.

وهكذا حصلت البلاد الوثنية كثيرا من الخير من الإسلام والمسيحية رغم ما أصابها من شرور[1].

([1]) يحاول المؤلف هنا أن يضع الإسلام والمسيحية في نسق واحد من حيث علاقتهما بما يسميه الدول الوثنية. والأمر يحتاج إلى توضيح. فلقد كانت المسيحية في أفريقية قبل دخول الإسلام. وعايشها الإسلام منذ دخوله. ومن هنا ينبغي أن نفرق– من الناحية السياسية– بين المسيحية الأصلية التي كانت في القارة ومركزها الإسكندرية، وبين المذاهب المسيحية التي جاءت مع الاستعمار الأوربي: البرتغالي والإسباني ثم الهولندي والفرنسي والإنجليزي.

هذه المذاهب الوافدة حاربت الإسلام والمسيحية الأصلية في القارة، وأوضح الأمثلة من ذلك ما حدث في أثيوبيا من محاولة الأوربيين تحويلها عن الأرثوذكسية، وقيام الحرب هناك بين الأثيوبيين والقوى الاستعمارية محافظة على الحرية الدينية.

ومن ناحية أخرى اضطر سكان القارة القدامى رغم أديانهم– إسلامية أو مسيحية أو وثنية– أن يحافظوا بصورة أو بأخرى على أوضاع فيها انطواء جزئي عن الاستعمار فضلا عن أن الاستعمار من ناحيته كان يفضل تحويل الوثنيين عن أديانهم واصطفاء قلة منهم للقيام بأعمال محدودة ذات طابع ثقافي. ومع هذا استطاعت هذه الشعوب رغم تعدد ثقافاتها ودياناتها ومواقفها من الاستعمار ومواقف الاستعمار منها أن تتخذ موقفا تحرريا كانت ثمرته استقلال مساحات ضخمة من القارة. هذا التحرر ليس نتيجة قصدها الاستعمار ولكنه رد فعل يمتاز بالمقاومة ثم الاستقلال ثم التعاون العالمي على أساس من المساواة (المراجع).

الفصل الرابع

متاعب الجماعة الوسطى

"حاجز الظل" و"حاجز الشعر":

إن الحالة الاجتماعية للشعوب الملونة أو المختلطة لا تقل مشكلتها عن مشاكل حاجز اللون في الشعوب غير المختلطة التي حافظت على "سلامة عنصرها" بل مشاكلها أشد تعقيدا. إن صعوبة العثور على اسم لهذه الجماعات المتوسطة هو في ذاته أحد الجوانب الكثيرة لهذه المشكلة. وزاد المشكلة تعقيدا أن كثيرا من الملونين يعدون أنفسهم بعض أفراد الشعب الذي ينتمي إليه آباؤهم أو أجدادهم. حدث في البرازيل في أحد الإحصاءات أنه كان من المستحيل إجراؤه بدقة بسبب تسجيل غير البيض على أنهم من الجنس الأبيض[1]. وقال "جارفي" **Garvey** الذي أسس إحدى الكنائس الأرثوذكسية الأفريقية في الولايات المتحدة: "إني كنت مكروها ولم يحسن معاملتي الملونون الذين أرادوا أن يعتبروا من البيض لا من السود وكانوا يكرهونني كالسم" وفي أثناء الاحتلال الياباني

---

(1) كلمة "غير الأبيض" **non- white** لا تدل ولا تنطبق على ذوي العنصر المختلط الملونين أو السود وإنما تعني ببساطة ما يشير إليه اللفظ– أي غير البيض. ولفظ الملونين لفظ مكروه في كثير من البلاد ويعني لفظ "بيانكو" **Bianco** في البرازيل كل شخص جلده غير قاتم حتى السود إذا كانوا ذوي مكانة ما يسمون أنفسهم "بيانكو" ولفظ "بريتو" **Preto** يطلق على الرجل الأسود الفقير وفي هذا المجال يدل اللفظ على تمييز في الطبقة أكثر منه تميزا في العنصر وعندهم أن الأسود الغني في منزلة الأبيض، والأبيض الفقير ما هو إلا في منزلة العبد الأسود (دونالد بيرسون).

لجزائر الهند الشرقية السابقة، وبعد هذا الاحتلال كان كثير من الأوروآسيويين يعدون أنفسهم هولنديين أو إندونيسيين، بل قد تنقل بعضهم من إحدى الجنسيتين إلى الأخرى- أيهما كانت أنسب- في فترات متقاربة. وهذه الانتهازية يمكن تفسيرها بسهولة، حيث أن هذه الجماعات المتوسطة التي ليس لها حق صريح في الانتماء إلى جماعة بعينها تحاول أن يعترف بها بين الجماعة التي منها أحد الآباء أو الأجداد. وهذه الانتهازية أو ما يشبهها غير خافية في مناطق الحدود المتنازع عليها في عالمنا الأبيض.

وكانت المسألة في الهند في غاية التعقيد فبناء على قانون المجلس الهندي سنة ١٨٧٠ كان أصحاب النسب المختلط والبيض متى ولدوا وعاشوا في الهند يسمون "مواطني الهند". ولكن في سنة ١٩٢٠ كان كل شخص من أب أوربي أو غير آسيوي وأم تجمع بين الأوربية والهندية يسمى هنديا انجليزيا. وعندما أرادت الحكومة سنة ١٩٢٥ الحصول على عدد أكبر من أصحاب الأصوات الانتخابية عمل تنظيم جديد يقضي بأن كل من كان أبوه أوربيا سمي أوربيا ومن كان أبوه ذا نسب مختلط سمي هنديا إنجليزيا. وبعبارة أخرى من كما جداه أوربيين فهو أوربي كذلك وإذا كان أحد أجداده من جهة الأب أوربيا فالابن والحفيد هندي انجليزي[1]. والمعروف عادة أن مركز الجماعة المختلطة النسب هو شبيه بمركز الأقليات. وجماعة الأقلية يجب مع ذلك ألا تحمل معنى الضعف المترتب على العدد، ولكنها تقدر حسب مبلغ نفوذها قوة وضعفا. وفي بعض

---

(1) يلاحظ أن التمييز يرجع إلى العنصر وإلى الأنوثة جميعا.

البلاد مثل جمهوريات أمريكا الجنوبية حيث للأهالي المختلطي النسب التفوق في العدد والقوة والنفوذ تختلف مشكلة الجماعة المتوسطة عنها في البلاد التي فيها هذه الطبقة المتوسطة أقلية تفصل بين الجماعتين التي ينتمي إليهما كل من الأبوين، عند ذلك ينشأ حاجز لون بين الجماعة المتوسطة أساسه الاختلاف المتدرج في السواد وتدرج تجعد الشعر. ولما كانت حالة هذه الجماعة المتوسطة في غاية التعقيد وأن الحيرة في تعيين موقفها يترتب على عوامل ثقافية وعنصرية فإن هذا الموقف يحتاج إلى شيء من التوضيح.

إن حالة أعضاء الجماعة المتوسطة تختلف الاختلاف الآتي:

أولا: في البلد الأب أي بلد الأسود من الأبوين.

ثانياً: في البلد الأم أي بلد الأبيض من الأبويين.

ثالثا: في نفس بلده حيث جماعته هي الأكثرية.

ومثل الحالة الأولى حالة الأوربي الآسيوي في جزائر الهند الشرقية الهولندية السابقة، ومثل الحالة الثانية حالة الأوربي الآسيوي نفسه بالنسبة لهولندة.

والموقف في أمريكا الجنوبية يمثل الحالة الثالثة.

والأم في الجماعة الأولى عادة من الجنس ذي البشرة السوداء وقد لقيت الأب الأبيض المهاجر إلى بلادها. ومشاكل الجماعة المتوسطة متشابهة في الحالة الأولى والثالثة، وهناك فرق بين هاتين الحالتين والحالة الثانية ولهذا السبب سنتناول بحث الحالتين الأولى والثالثة أولا، والثانية في

البلد الأم بعد ذلك.

١- حالة الجماعة المتوسطة في بلد الأسود من الأبوين:

في هذه الحالة يغلب أحد المواقف الآتية: في الموقف الأول يكون للبيض السلطان الكامل وفي الثاني لجماعة السود معظم السلطان مع الصراع الدائم بين جماعة أحد الوالدين السود وبين البيض. وفي هذه المواقف جميعا يفضل مختلطو النسب أن يعدوا أنفسهم منتمين إلى العنصر صاحب السلطان. ومع هذا فمن العسير على الرجل الملون أن ينتمي إلى إحدى الجماعتين إذا كان لون بشرته أشد سوادا من إحداهما أو أقل سوادا من الأخرى، فإذا كان أحد الأطفال في إحدى المستعمرات أقل سوادا من أمه التي تربى بين جماعتها فإنه يرى نفسه عادة أسمى منزلة من أسرته وأصدقائه. ولكنه سيكون "خارجا" في أسرة أبيه الأبيض. وحتى في جماعة أمه قد يعد مهينا بما أشرب من آراء البيض منذ ولادته وعندئذ يصبح فريسة شعور عدائي ظاهر أو مستتر حتى في حالة ما إذا كان الوفاق سائداً بين البيض والسود.

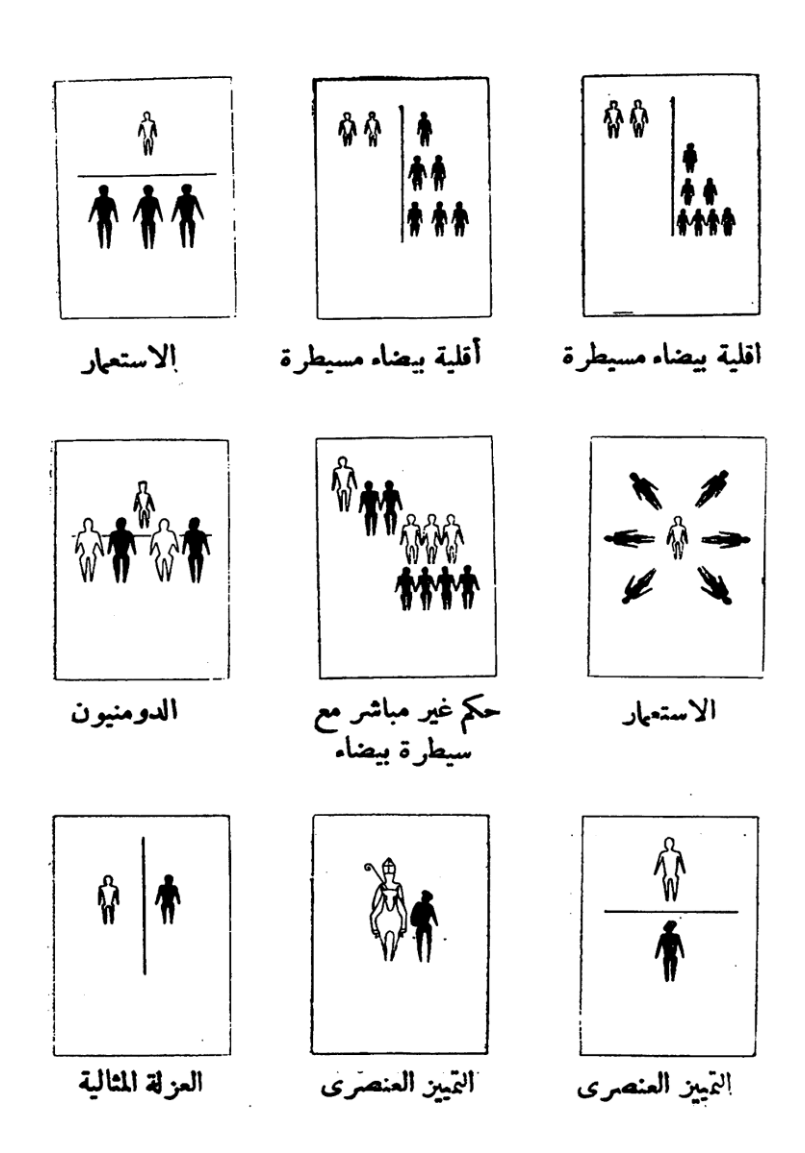
وإذا كانت الأجناس تعيش معا في تنافر شديد كما في الموقف الثالث فإن حياة الملون قد تكون في خطر. وفي الثورة الإندونيسية قتل كثير من الأوروآسيويين لأنهم كانوا معدودين من البيض في نظر الإندونيسيين ومع هذا فالبيض الذين يعيشون في البلد الأب الذي يعيش فيه السود قد يعاملون كل ملون معاملة أساسها التمييز العنصري، وقد يشتد سوء المعاملة بخاصة إذا كان الملون نتيجة علاقة غير شرعية.

وفي الهند وفي بلاد أخرى كثيرة ظلت الأحوال حقبة طويلة في وضع يجعل من المستحيل انتماء أحد أفراد الجماعة المتوسطة إلى جماعة أي الوالدين وقد كتب "ستونكوست" **Stonequist** أن الأوربيين كانوا يعدونه مختلطا متى كانت عشيرته تعتبره لا جنس له، أما الهنود فكانوا يرونه منبوذا له مساوئ والديه جميعا وليس له فضائل أي واحد منهما[١].

والظاهرة التي يسميها "أولبرت" **Allport** "حماية الذات" **Ego Defence** تتولد في مثل هذه الظروف ولا يمكن تفسيرها، وهي تتضمن أن الإنسان الواقع تحت تأثيرها يرتاب في كل شيء ويرى الحياة سلسلة طويلة من التنازع مع كل إنسان. وهذه الريبة التي كثيرا ما يتهم بها عضو الجماعة المتوسطة تصبح كأنها حاسة سادسة له ويسميها المغني "هاري بلافونتي" **Harry Belafonti** الأذن الثالثة وهو شديد

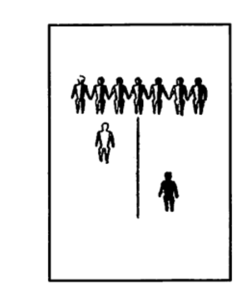
---

(١) مما قاله "بانديت نهرو" "إن البريطانيين أوجدوا في الهند طبقة جديدة طبقة متعلمي الانجليزية الذين يعيشون في عالمهم الخاص ولا علاقة لهم بسائر الأهالي".

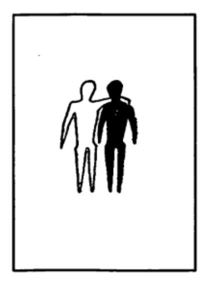


اقلية بيضاء مسيطرة
أقلية بيضاء مسيطرة
الاستعمار
الاستعمار
حكم غير مباشر مع
سيطرة بيضاء
الدومنيون
التمييز العنصرى
التمييز العنصرى
العزلة المثالية


العزلة مع التمييز العنصرى
التعاون المثالى
التعاون الخادع
أغلبية عددية مسيطرة
قلبت فاصل اللون
الفيدرالية
المسيحية الاستعمارية
المشاركة مع الطاعة
الجماعة المتوسطة كحاجز بين الجماعتين
وروابط طيبة مع كل منهما
الجماعة المتوسطة كحاجز بين
الجماعتين وعلاقة عدائية مع كل منهما

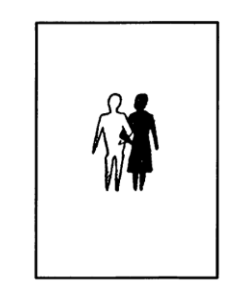


الجماعة المتوسطة مع ميل
إلى تفضيل البيض

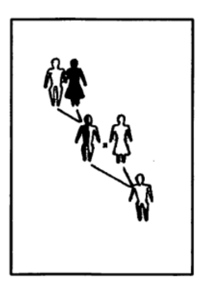


اعتراف بفصل الأقلية لمس
الكتف بحنان ظاهرة الغلام

المعونة – اليد العليا
واليد السفلى



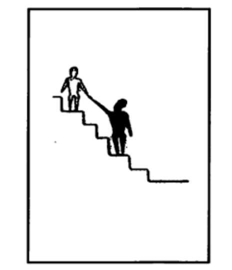
امتصاص فردى



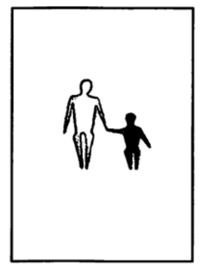
امتصاص لتخفيف
العامل العنصرى



التكيف



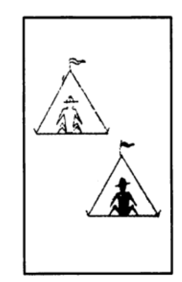
رفع مستوى العنصر
والحالة الاجتماعية



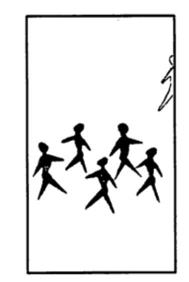
الوصاية مع التبنى –
ظاهرة الغلام



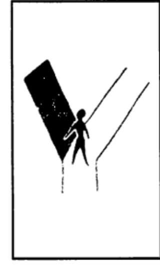
الوصاية مع التبنى –
ظاهرة الغلام


العزلة


اتفاق ضد البيض


انتهاء
معارضتهم للبيض

ارتفاع العنصر مع
وجهة ملونة



تحسين العنصر مع
وجهة بيضاء

الارتياب والحساسية لما يربطه بالأقلية، أو عند محاولة غير ملائمة للاتصال به والتقرب إليه بأن يخاطبه فرد بلغة جماعة انحدر منها وهو ينكرها. وهو أيضا شديد الارتياب إذا ما خوطب بشيء من التواضع المبني على الصداقة. ومركب النقص هذا وغيره من الظواهر التي تنتج عن هذه الظروف قد بحثت من قبل. وكثيرا ما يرد من يعامل معاملة تنطوي على التمييز بأنه يعامل هو غيره نفس المعاملة مما يدعو إلى أن تسيء كل أقلية غيرها من الأقليات. وكل جماعة يؤلمها التمييز وتتنابذ مع كل إنسان من غير هذه الجماعة مع محاولتها جمع مؤيدين لها في حركة المقاطعة التي تقوم بها ويرى "سمبسن"، و"ينجر" **Simpson- Yinnger** أن هذا عدوان في غير موضعه وأن كراهية الإنسان لغيره هي إحدى الوسائل التي تنجيه من

كراهية نفسه.

وخطر هذه الريبة التي ذكرناها فيما سلف لا يزول ومن مضار الآذن الثالثة أنها قد تحس بالتمييز حيث لا يوجد هذا التمييز. وهكذا تخطئ الأذن الثالثة حيث يضللها ما تسمعه وتنقلب الريبة الحقيقة التي نفهمها إلى ريبة وهمية وحاجز لوني وهمي. وسواء أكانت هذه الريبة لها ما يبررها أولا، فإن عضو الجماعة المتوسطة يكون في مركز ضعف جدا نظرا إلى أن التمييز في اللون هو في الوقت نفسه تمييز في الحالة الاجتماعية. وفوق ذلك تبقيه جماعة أحد الوالدين المتفوقة في نفس طبقته وأن الارتباط الدائم بين فاصل اللون وفاصل الطبقة في غاية الوضوح نظرا إلى أن معظم أعضاء الجماعة المتوسطة ينشئون من الاتحاد بين أم من أهل البلاد ورجل أبيض من طبقة منخفضة قدم إلى هذه البلاد إبان عزوبته. بقيت كلمة تتعلق بالتزاوج الأجنبي عنصريا واجتماعيا وهو ما يسميه "فرزييه" **Frazier** "الهجين الثقافي" وهو في رأي "روبرت بارك" **Robert Park** "الرجل الهامشي" **Marginal man** الذي حكم عليه القدر أن يعيش في مجتمعين وبين ثقافتين ليستا مختلفتين فحسب، بل ثقافتين متعارضتين[١].

وهناك اعتقاد بأن هؤلاء المختلطي النسب بحكم عزلتهم عن مجتمع البيض لديهم الاستعداد لأن يصبحوا وطنيين بسبب عدم اندماجهم في جماعة البيض. ولربما كان كرههم الأعمى لجماعة البيض سببا في أن

---

(١) ليس هذا مقصورا على غير البيض فإن هذه ظاهرة ترى في أي مكان يرتفع فيه أحد أفراد الطبقة الفقيرة في السلم الاجتماعي إلى أن يصير عضوا في طبقة مغايرة تغيرا كاملا عن طبقته الأصلية.

يصبحوا متفرقين، وهو ما ليس في صالح البلاد التي يدينون لها بالولاء(١).

ثم لنا كلمة في المرأة الهامشية "والتي لم يكتب عنها أحد فيما نعلم فهي أشبه بالرجل الهجين ليس لها موقف محدد، بل موقفها أكثر دقة إذا كانت تخادن الرجل الأبيض فهي لنفس الأسباب التي تتعلق بالرجل تفضل الزواج برجل أبيض ولكن في طريقها لسوء الحظ حجر عثرة فهو قد قدم من وراء البحار في خدمة الجيش أو في خدمة إحدى الشركات وقد يحب إحدى الملونات لعدم وجود إحدى بنات جنسه، وهو في الغالب لا يتزوجها بل هو محرم عليه الزواج في سنوات عمله الأولى، وهكذا ينشأ بين الاثنين علاقة طويلة الأمد لا مفر منها أن تنتهي بمأساة عندما يذهب إلى بلده في إحدى الإجازات ويعود ومعه زوجة من بنات جنسه، وستكون الزوجة التي قدمت حديثا من أول الأمر على غير وئام مع منافساتها اللاتي يفقنها عددا وينجم عن هذا عدم احتمال الزوجة البيضاء لمثل تلك المرأة، وستكون معاملتها لها منطوية على قدر كبير من التمييز العنصري، ونظرا إلى ما حدث اليوم من تطور اجتماعي تغير موقف المرأة الهجين أخيرا وخفت صيحتها القديمة التي ذكرها الشاعر "كبلنج" "عد إلى مندلاي".

وفي بعض البلاد كإندونيسيا يمسك بزمام الحكم العنصر القاتم البشرة

---

(١) مما يجب ملاحظته أنه من النادر أن كان أحد أفراد الطبقة المتوسطة يوما ما محررا لبلاده، وقد يكون ذلك راجعا إلى أن هؤلاء الرجال الهامشيين الذين ينتقلون إلى طبقة أعلى يلتحقون بالبيض وينتهي بهم الأمر إلى عدم الخروج عليهم، وعندما يكون أحد أفراد الطبقة المتوسطة قاتم اللون فقد يفضل الانضمام إلى جماعة الأب القاتمة ولكن هذه من جانبها تفضل أن يكون محررها "نقي الدم".

ويجب هنا أن نذكر استثنائيين أولهما "بوليفار" **Bolivar** الذي لم تكن له أبوة أشد منه سمرة ذات أهمية، والثاني جوزي ريزال **Jose Rizal** محرر الفلبين.

في غير وئام مع السكان البيض، وهذا الموقف الثالث الذي ذكرناه فيما سبق، وفي مثل هذه البلاد تنقلب حالة أصحاب الأنساب المختلفة التي كانت مرضية من قبل إلى حالة غير راضية، ويصير مركز الجماعات المتوسطة أصعب كثيرا مما لو كانت العلاقة بين جماعات الأب طيبة.

وفي هذه الحالة لا سبيل للملونين إلا أن يتحدوا مع أكثر الجماعات شبها بهم، وعلى كل حال إن عضو الجماعة المتوسطة هو الذي يتلقى الضربات وهو الذي يقف حائلا بين الجماعتين المتنازعتين (في هذا الموقف بخاصة) والأوروآسيويون مثلا يشعرون أنهم في موقف حرج أوجدهم فيه جماعة آبائهم البيض ومع هذا فجماعة السود لا يقبلونهم. يدل على هذا حوادث الطرد الكثيرة من بلاد إندونيسيا.

ومن الجائز أن ينتهز الفرصة عدد كبير من الجماعة المتوسطة فيتخذون قراراً إجماعياً بالانتماء إلى أحد الفريقين، وأفضل مثل لتلك السياسة التي اتبعتها الجماعة الهندية الأوربية في جزائر الهند الشرقية بعد خروج الهولنديين منها[١] وفي سنة ١٩٥١ عندما كان على كل هندي أوربي أن يقرر انتماءه إلى حد الجانبين فيقرر أن كان رعية هولندية أو مواطنا إندونيسيا غيرت الجماعة سياستها تغييرا كاملا بعد أن كانت من قبل تؤيد الهولندية.

ومن اليسير أحيانا أن تقف الجماعة المتوسطة موقف الحائل بين

---

(١) ملحوظة: الهندوأوربيون **Indo Europeans** أو الهندوألمانيون **Inodo- Germans** كانوا هم الآريين **Arvans** الذين نزحوا من آسيا إلى أوروبا بينما الهندوأوربيون في جزائر الهند الشرقية التي كانت تابعة لهولندا هم أوروآسيويون **Eurasians**.

فريقي الأبوين بأسلوب آخر. ففي البلاد التي يكون زمام الحكم في أيدي البيض يكون من نصيب الملونين الذين امتصتهم الجماعة بعض الوظائف الحكومية وهؤلاء في هذه الحالة يؤدون عمل وسيط السلام بين الفريقين وفي نفس الوقت هناك مزية كبرى لوجود هذا الحائل فإنه يفيد الحاكمين البيض من ناحيتين: الأولى أنه يعطي الوطنيين قسطا من الاستقلال الذاتي يبين مدى أهليتهم للإدارة، والثانية أن هذا الفريق يصبح مسئولا عن كل ما قد يوجه من اللوم إلى الحكام البيض.

٢- الجماعة المتوسطة في بلادها:

إلى هنا كان كلامنا منصبا على الأهالي الملونين من الجماعة المتوسطة وهم أقلية في محل ميلادها، وهذه الفقرة ستتناول وصفا لموقفها في البلاد التي لها فيها المقام الأول من جميع الوجوه بينما تتراجع منزلة جماعة الأب إلى مكانة "ثانوية" وأكثر الأمثلة وضوحا لذلك نجده في أمريكا اللاتينية.

وقد كان المتوقع أن يكون هذا الوضع هو نهاية لمشكلة الجماعة المتوسطة، ونهاية كذلك لجميع حالات التمييز. ولكن الأمر ليس كذلك لسوء الحظ وحيث لم يصبح لحاجز اللون أي أثر في وحدة الناس أو التفرقة بينهم، ظهرت مسائل أخرى إحداها تدرج اللون، وهذا لا يشطر الناس إلى سود وبيض أو بين بيض وغير بيض، إنه يفصل بين أشد الناس سمرة وأخفهم سمرة في المجموعة الواحدة أو في الأسرة الواحدة، وفي اللغة الإسبانية كثير من الألفاظ الدالة على التدرج اللوني. فلفظ يدل على قليل السمرة، وآخر على متوسط السمرة مع نعومة الشعر، وثالث للون الأسمر

مع تجعد الشعر، وآخر للون الأسمر، وآخر للون الأسود مع تقاطيع الرجل الأبيض، وآخر للون الأسود.

وفي المستعمرات الفرنسية ألفاظ دالة على مثل هذا الاختلاف[1] أن التدرج المنتظم في اللون يذكر الإنسان بالهندوكية التي فيها "السودرا" Sudra ذوو لون أسود، و"الفسيا" Vaishyas ذوو لون أصفر داكن، و"الكاتريا" Katrihyas ذوو لون أحمر داكن، و"البرهما" (رجال الدين) بيض والقديسون أكثر بياضا. ولو أن الأمثلة الأولى تتعلق بجماعات مختلفة الأجناس إلا أن الأمثلة المستقاة من النظام الهندي مستمدة من مجموعة من السكان من جنس واحد.

ولقد أصبح واضحا أن حاجز السمرة من المحتمل أن يؤدي إلى حاجز طبقي فيه أشد الناس سوادا هم "السودرا" (المنبوذون) أو "الباريا" وهم دون "السودرا" لفظ "كاستوس" Castus معناه "نقي" هو لفظ مناسب جداً؛ لأن هذا المجتمع الذي يقر نظام الطبقات يخشى أن يكون الأبيض فيه شيء من التلوين، ولذوي اللون القاتم طريقة لأن يصبح أولادهم أقل سمرة وذلك بالزواج المختلط. وهذا يعني من جانب واحد على الأقل أن الدخول في إحدى الطبقات أسهل من الطريق الذي سلكه الهندي، لأن سبيله الوحيد هو الموت وهو أفضل سبيل لبقاء العنصر نقيا.

وفي الظروف التي ليس لفاصل التدرج اللوني أي أثر توجد أسس أخرى يعتمد عليها أكثرها انتشارا فاصل الشعر الذي يفرق بين الشعر

([1]) ذكر المؤلف هنا تفاصيل هذه الأسماء الإسبانية والفرنسية المراجع.

المجعد والشعر المستقيم. وقد يستعمل بدلا من ذلك الشعر "الجيد" والشعر "الرديء"[1] والذين ليس شعرهم مجعدا يستطيعون الانتساب إلى الدم الهندي أو اللاتيني أكثر من ذوي الشعر المجعد وقد يستأثرون بهذا النسب دون غيرهم من الشعوب. ومن المحال– مع ذلك– التنبؤ بأن شخصا بعينه من الجماعة الأفريقية المتوسطة سيولد بشعر مجعد أو بشعر مستقيم، بل من الخطورة حتى مجرد التخمين. ففي هذه المجموعة أسر بعض أبنائها ذوو بشرة قاتمة وشعر مستقيم والبعض الآخر ذوو لون أقل سوادا مع شعر مجعد. والحالة الأولى مفضلة، وقد يحدث أن الرجل الملون صاحب الشعر المستقيم يستطيع الادعاء بأنه من سلالة الهنود النقية أو سلالة الهنود الحمر، وعلى هذا يتجنب الوجود في مجتمع عام مع أخيه ذي الشعر المجعد. وكثير من الناس يولون أهمية خاصة لفاصل الشعر حتى أنهم يعملون على تحويله إلى شعر مستقيم، وبعد أن أمكن ذلك انقلب الأمر من تفضيل اللون الأسمر مع نعومة الشعر على اللون الأقل سمرة مع الشعر المجعد إلى تفضيل الثاني على الأول.

٣- الجماعة المتوسطة في بلد الأم:

خلافا لبلاد جماعة الملونين لا تكاد توجد مشكلة للجماعة المتوسطة

---

(١) يدعو الإندنيسيون ذوي الشعر المستقيم سكان غانة الجديدة "الرؤوس المتغضنة" أو "البابوان" **Papuans** ولدى أهل المغرب، ليس لفاصل الشعر ولا لفاصل اللون الأهمية التي لها عند غيرهم، ولكن الواقع أنهم كانوا أميل إلى الاختلاط بالآسيويين منهم إلى الأفريقيين ويبدو أن فاصل الشعر كان معروفا في اليابان وكان ذوو الشعر الكثيف يدعون "الأينو" **Ainu** ويربطونهم بالقرود العليا. والهنود يفرقون بين نماذج الشعر المختلفة **Kesa** "كيزا" وذلك فوق ما لديهم من التفرقة بسبب اللون **Varna**.

في البلد الأم أي في البلاد التي ينتمي إليها الأبيض من الوالدين لأنها أقرب إلى جماعة الأبيض من الوالدين ولكن الجماعة المتوسطة لا تزال تمثل جماعة منفصلة (ولهذا فهي ثانوية)، وفي الأحوال التي يكون أحد أفراد الجماعة المتوسطة قاتم اللون يدعي أحيانا أنه مولود في أحد أقطار جنوب أوربا أو ينتسب إلى بلاد لم تكن مستعمرة من قبل وبينما لا يرضى أحد الأوروآسيويين من إندونيسيا أن ينسب إلى إندونيسيا فأهالي الأنتيل وسورينام يرضيهم كل الرضا أن ينسبوا إلى البلاد التي ولدوا فيها والتي تحمي كل أفرادها دون تمييز أو تفرقة بين جماعة كل من الوالدين.

بعض الملاحظات العامة:

زيادة على ما ذكرنا عن مركز الجماعة المتوسطة في بلاد عديدة هناك جوانب عامة جديرة بالذكر. أن ما قيل عن فاصل اللون والشعر يدل على أن الوحدة ليست قوية فيها. إن وحدة الجماعة ضرورية في كل مجتمع وهي موجودة فيه دائما على وجه من الوجوه، نجد الدليل على هذا في كل مجتمع وفي كل جماعة دينية وفي كل ناد من





نموذج لاقتباس اللباس الغربي





نموذج لاقتباس اللباس الغربي

أندية الشباب. إن الأسرة أصغر الجماعات وأقواها وهناك حكمة صادقة تنص على أن الطيور على أشكالها تقع، بل إن البجع يذهب في هذا المعنى إلى مدى أبعد؛ حيث يجتمع حسب لون ريش كل جماعة منه. ومن سوء الحظ يقل التماسك الجماعي في الجماعات المتوسطة وهذا

نلحظه سواء في بلد الأب الأسود أو في بلد الرجل الملون نفسه حيث الملونون الأقل دكنة يتجنبون أحيانا لقاء مواطنيهم الأشد منهم دكنة أو العكس كما يحدث في إندونيسيا. ودرجة اللون– كما ذكرنا من قبل– كثيرا ما تحدد حالة الفرد الاجتماعية، وأنها لنزعة طبيعية– ولو أنها تدعو للأسف– أن يحاول الفرد إذا كانت حالته أسمى أن يتجنب العار الذي يلحقه بمخالطة من هم "دونه". وقريب من هذا ما يحدث في بلاد كل أهلها من البيض ولكنه يجرى في شيء من الخفاء لأن لون البشرة واحد لدى الجميع. وفي الأحوال التي تدل ملامح الفرد الكثيرة دلالة واضحة على الجماعة التي يفضل عدم الانتساب إليها تحدث ظاهرة "كره النفس"؛ وكره النفس هو التعبير عما يشعر به أحد أفراد أي جماعة من كره كل ما يذكر بأصله العنصري في الوسط الذي يعيش فيه، فإذا ما ظهرت أية دلالة على عنصره في ملامحه فهي عادة ترد إلى مولده في بلد من جنوب أوربا أو أي بلد آخر غير مستعمر حتى يدخل الفرد في زمرة البيض على قدر ما يستطيع من الإقناع، حتى إذا نجح في محاولته فإنه ينقلب بعنف ضد جماعة أضعف الوالدين. ذكر "بالاندييه" **Balandier** في دراسته للسود في برازافيل في الكونجو أن الرجل الملون يحتقر ويبرء من أمه الأفريقية إذا ما وصل إلى مركز كبير. ولسنا في حاجة إلى دليل آخر على أن هذا كله ليس مرده إلى اللون وحده الذي لا يعدو أن يكون "شيئا غريبا تحت الجلد"، ولكنه يرد إلى خواص عنصرية أخرى.

وهناك ظاهرة أخرى يمكن اعتبارها إحدى صور كره النفس، فمن الجائز أن ينشط أحد الأفراد نشاطا عظيما ضد هذا الموضوع أو ذاك

ليكون من ذلك النشاط ستار يخفي عنصره أو وطنه.

وبعد فمن يستطيع أن يتهم أحد المتحمسين ضد الزنوج بأن الدم الزنجي يجري في عروقه؟

ويكفي ما ذكرناه خاصا بنقص التماسك الجماعي في الجماعة المتوسطة والصراع السيكولوجي بين ضمير الجماعة وتماسك الجماعة. ويجدر بنا بحث شعور الوحدة لدى جماعة أحد الوالدين البيض في الإقليم المداري. فالبيض على خلاف الجماعة المتوسطة ينزعون دائما إلى الوحدة. وهذا بدوره قد يؤدي إلى كثير من المضاعفات.

وفي المستعمرات يكون البيض عادة دولة داخلة الدولة[١] وهذا يضمن حماية مكانة الرجل الأبيض وهو ما يجعله غير ميال لقبول أجنبي في الجيش، ومن هذا يتضح أن الهدف الأساسي لهذا التماسك هو دائما المحافظة على المكان الذي يتعرض للهجوم والانتزاع بمجرد زوال السيادة، ومن الطبيعي أن الذكريات القديمة لما حدث في البلاد التي قدموا منها تدعو إلى تجمع المهاجرين، ولكن ذلك بدوره يدعو إلى عدم اندماجهم التدريجي في الوسط الجديد، وإذا ما كان التضامن الجماعي بين مواطنيه يحول دون اندماجه حتى بين الجماعة التي ينتمي إليها لاختلاف الطبقة أو التعليم أو حتى للسن فهو يرجع إلى تأثير المناخ المداري وينتهي إلى كره هذا الجزء من العالم الذي لم يقبله ويتميز في التضامن الجماعي جانبان:

(١) ولهذا السبب يرى ولز **Wells** أن عدم التعاون بين غير البيض والبيض نشأ من المقابلة بين الأبيض وغير الأبيض.

أولا: يقوى التضامن إذا وجدت جماعة كبيرة أو جملة جماعات صغيرة. إن الضرورة تقضي بتكوين جبهة قوية للوقوف أمام عدو مشترك بالرجل الأبيض، وهذا ينطبق أيضا على مجموعة العناصر غير البيضاء بشرط وجود عدو مشترك، ولولاه لما عمر الاتحاد بين هذه المجموعة طويلا، وفي إندونيسيا انفض كل اتحاد بين الملونين بعد انتهاء الحكم الهولندي بمدة وجيزة. ولقد حاول الرئيس "سوكارنو" أن يوقف هذا التفكك بدعايته الخاصة بغنيا الجديدة حيث كان الغرض منها الإيهام بأن هولندة لا تزال العدو الواجب قهره ولكن المتعلمين من سومطرة وبورنيو لم يقتنعوا بالصيحات المسموعة من جاوة لأن الإندونيسيين لم يكونوا ضد البيض ولكنهم يعضون الحركة الوطنية الإندونيسية.

والجانب الثاني: أن هناك احتمالا مستقلا بأن التماسك بين جماعة الأب ذي اللون الأدكن قد يلاقي نفس الصعوبات الناجمة من التفكك كما في حالة الجماعة المتوسطة.

وعلى أي حال- وهذا ما كتبه "آلان برنز" **Allan Burns**:

"لعل أخطر عيب للزنجي المتعلم- من وجهة النظر إلى تقدم قومه- هو افتقاره إلى الرغبة في التعاون وعجزه عن الانقياد طويلا إلى رئيس من أبناء جنسه وتكبره الذي يثير فيه الغيرة ويدفعه إلى نقد زميله الزنجي ومحاولة تعويقه إذا ما رآه يرتفع بضع درجات أعلى منه في سلم الثقافة والتقدم". ومع هذا فهل عدم التماسك هذا من خواص الملونين؟ ما على المرء إلا أن ينظر إلى الفرقة في أوربا.

الجانب الثقافي من الصراع العنصري:

كثيرا ما يحدث صراع ثقافي كما يحدث صراع عنصري. وسببه أن الرجل الملون سواء أكان في بلده أم في الوطن الأم عندما يلقن أساليب المدينة الغربية قد يجد مشقة في تمثلها جميعا مما قد يدعو إلى الكفاح. والرجل الهجين المثقف سواء أكان أفريقيا قحا أم أسيويا قحا وهو ما يسميه "ستونكوست" **Stonequist** "الهجين المثقف غير المندمج" قد صار كذلك لطول اتصاله بالمبشرين فأضفوا عليه صبغة متباينة القوة من المدينة الغربية، ومثل هذا الرجل يسمى بالرجل صنع المبشرين **Missionary mape**، وفي كلامه تكلف وله ولع بأن يعد نفسه من المبشرين، ونجد صنواله الرجل "صنع الجيش" الذي يستمد صبغة مشابهة من المهنة العسكرية. وبينما تكون عبارات الأول ألفاظا منتقاة يتكلم الرجل المصنوع في الجيش بخشونة ويستخدم الألفاظ النابية التي تعودها وقبلها. وهذا قريب مما يسميه "أولبورت" **Allport** "ادعاء الوضع الاجتماعي" وهي محاولة الفرد بلوغ حالة اجتماعية من طريق حديثه أو لباسه أو من طريق التصرفات العجيبة.

وكثيرا ما يظن– وهو خطأ محض– أن الهجيبن المثقف إذا وضع إحدى قدميه في أحد المعسكرين والثانية في المعسكر الآخر فقد نجح بطريقة ما في أن يجمع كلتا الحضارتين، والحقيقة المجردة أن أمله في الجمع بينهما لم يكن إلا حلما كاذبا، وفي أثناء الصراع الذي يكون بين جنبي الفرد ستبعده الحضارتان معا فعلا من ثقافته ومن بيئته بل ومن طبيعته. وهكذا يصير المولود الذي جاء من "تزاوج حضارتين" ربيبا غير متزن

الثقافة، ويجب التفرقة بين هذه الحالة وبين اكتساب جوانب من ثقافة أخرى مع احتفاظه بثقافته الأساسية، وإذا ما امتزجت الديانات أصبحت خداعا، ففي إسبانيا مثلا عاد اليهود والمغاربة إلى دياناتهم بعد عدة قرون من اعتناق المسيحية، وبعد الحرب العالمية الثانية ارتد كثير من الأسيويين عن ديانة الرجل الأبيض بمجرد ذهاب سلطانه.

وقد تسوء الأحوال عندما يحاول شعب مختلط النسب أن يختار بين ثقافتين، فإذا ما اختار أحد الجماعة المتوسطة مثلا ديانة جماعة الأبيض من الوالدين بينما هو يعيش بين الجماعة الأخرى فإن متاعبه العنصرية ستزيد من متاعبه الثقافية، بل سيكون عبئه أثقل إذا كانت الثقافة الغربية مقرونة بسلطان الحكم الغربي(١) غير المستساغ.

المشكلة الأكثر تعقيدا في البلاد التي فيها أكثر من عنصرين أو جماعتين ينتج عنها كثير من الجماعات المتوسطة:

توجد بلاد كأمريكا الجنوبية مثلا يعيش فيها في بوتقة واحدة هنود وأفريقيون وأوروبيون وآسيويون وجماعات من المهجنين نتجت عن تزاوج الآسيويين. وفي جنوب أفريقية عدد كبير من الآسيويين والبريطانيين والأفريكان(٢) والأفريقيين. وكما في المنطقة الكاريبية يكون الآسيويون

---

(١) قارن أيضاً كشمير حيث تقف بين الهند وباكستان حسا ومعنى، وشعبها مسلمون رغم سنوات طويلة من الحم الهندي والسيادة المسيحية، ويلاحظ كذلك أن موقف إسرائيل شبيه بها فهي جيب غربي غير مسيحي في المحيط الإسلامي. وهذه الجماعات المتوسطة في هذه المساحات الشاسعة صغيرة نسبيا نظرا إلى قوة الديانات الكبرى التي تقاومها وليس لها مكانة كوسيط في المنطقة. وفوق ذلك من السهل أن تنسب إلى جماعة أحد الوالدين نظرا لأن البشرة تختلف قليلا أو لا تختلف كلية في هذه المناطق.

(٢) اسم للهولنديين المستعمرين كان يطلق عليهم من قبل "البوير" أي الزراع.

أقلية، ومع هذا فهم غير مرغوب فيهم حتى بين الجماعات المتوسطة والهنود في كينيا الآن أقلية سائدة، ويخشى أن يحلوا محل الأوربيين. ولأمر ما يفضل الأفريقيون الأوربيين، وكثيرا ما يقع النزاع بين الهنود والأفريقيين، وفي إندونيسيا للصينيين أهمية خاصة فإن الجماعة المتوسطة في إندونيسيا تشمل غير الأوروأسيويين. الهنود الصينيين[1] والصينيين الأوربيين كما تشمل في الجيل الثاني، الصينيين الهنود الأوربيين وغيرهم من الجماعات المتعددة العناصر، وفي جنوب شرق آسيا مشكلات الجماعات المتوسطة معقدة كذلك، ويجب أن تعالج كل جماعة على حدة، ووضع الجماعة المتوسطة لا يتعرض إلا لأقل الضغط في أقطار كهاواي حيث هناك قدر كبير من التسامح العنصري.

ترقية الجنس وتحسينه:

إن إحدى الآثار الهامة لفاصل اللون وفاصل تدرج اللون وفاصل الشعر ومحاولة الناس تحسين خواصهم الذائعة، وهذا يمكن تنفيذه بطريقة مصطنعة أو بالتزاوج مع البيض، وهذا الأسلوب الذي يقتضي "التبييض" مناقض على خط مستقيم لمحاولة رفع حالة الجنس في حدوده الطبيعية، والفرق الأساسي بين المنهجين؛ أن الأول يحاول إخفاء الأصل العنصري إما بأسلوب مصطنع أو بخلق عنصر مختلط، بينما يزهو الثاني بنسبه

---

(1) الهندي الصيني في إندونيسيا هو سلالة الصيني مع الإندونيسي أو الملايو أو الأبيض، أو هو السلالة الثانية للبيض مع الإندونيسيين والصينيين، والصينيون لهم موقف غريب فمن اندمج منهم بحكم الزمن فهو أفضل بكثير من الصينيين السنك Sinkeh Chinese الذين يعانون نفس المشكلات التي يعانيها البيض.

ويستمسك به مع بذل أعظم الجهود في الوقت نفسه للحصول على ما للرجل الأبيض من وضع اجتماع. وغني عن القول أن النظريتين قد تلتبسان بمنتهى السهولة. فإذا ما تطلع الرجل الملون فرأى المستقبل في جانب الجنس الغريب فقد يهمل جنسه هو إهمالا تاما بل قد يعده حجر عثرة في سبيله، ومن الممكن أن يسبب هذا كرهه لنفسه وهو ما وصفناه في فصل سابق. وكثيرا ما يكون الزنجي– الذي ينحو النحو الآخر– فخورا بعنصره وينجح في الوصول إلى الوضع الاجتماعي الذي يهدف إلى بلوغه. يمثل هذا الشعور تلك المجلة الدورية الشهيرة الزنجية في الولايات المتحدة التي تسمى "أبنوس" **Ebony** وربما أشكل الأمر إذا دخل عامل الدين. فإذا وافق أحد الملونين مثلا على أن تعمده الكنيسة ليصير بذلك أحد أفراد الجماعة البيض، فهذه المحاولة لتحسين العنصر قد تنقلب إلى نكرانية فلا يكون تحوله إلى الدين الجديد إلا خطوة ضرورية يصبح بها أحد أفراد الجنس الذي يرى أنه أسمى من عنصره. وقد يعتنق الزنجي النصرانية لاعتقاده أنه في حاجة إلى دين خير من الوثنية، إن الدافع له إلى رفعة عنصره هو الرغبة في المساواة بجاره الأبيض لا دعواه بأنه أحد أفراد الجنس الأبيض.

وليس للتقدم العنصري أهمية كبيرة مادام الباعث عليه فرديا فإذا صار حركة عامة فلابد من التصادم بالجماعة التي لا تسهم في التقدم وخاصة لأن كل من يقف في طريق الحركة لابد أن ينحى جانبا بلا رحمة، وهذا لا شك سبب لاعتبار الحركة حركة مدمرة، وقد سبق القول أن هذه الحركة تجد أعوانا من البيض الذين يرجون النفع السياسي من ورائها

وتكون النتيجة حصول السود في جهادهم على معونة مبذولة في غير إخلاص.

ومحاولة تبييض الجنس أو آسيويته تهدفان إلى تحسين الجنس أو تغييره ويمكن أن نقسمها إلى قسمين الأول: من طريق النسل وذلك بالزواج المختلط، والثاني: بإخفاء الجنس بالطرق المصطنعة حيث يعالج الجلد الشعر خاصة معالجة صناعية تجعل الفرد يبدو أكثر بياضا أو تجعله في بعض الأحيان أشبه بالآسيويين. وعيب الطريقة الأولى أن الأبناء لا يخفى انتماؤهم إلى عنصرين مختلطين وعلى ذلك لا ينتمون انتماء كاملا إلى أحد أصليهما.

وهذا يدعو إلى ظهور جماعة خارجة لها موقفها المتميز بما يصحبه من توتر، والواقع أن هذه الطريقة تنجح إذا توالى السير على منوالها عدة أجيال متتابعة.

وبين الهنود الأفريقيين في كينيا تلاحظ ظاهرة عجيبة جديرة بالذكر، أن استعداد جسم الإنسان الطبيعي أن يتكيف حسب البيئة المحيطة به ليدعو إلى أعجب تطور عنصري. وهكذا نرى في بعض أنحاء كينيا مثل كيسومو عددا كبيرا من الهنود وهم لا يتزاوجون من الأجناس الأخرى غالبا كما يفعل إخوانهم في تنجانيقا. ومع هذا ففيها عدد من الأبناء ذوي العنصر المختلط، وهم عادة من آباء هنود وأمهات أفريقيات وهؤلاء الأبناء فيهم شبه ملحوظ بأمهاتهم حتى يبلغوا الثانية عشرة، حتى إذا بلغوا سن الرشد أدركوا أن عنصر آبائهم أهم من عنصر أمهاتهم فيأخذون

تدريجيا في محاكاة آبائهم في مظهرهم، ومن هنا يتضح أن ظاهرة معرفة العنصر تلعب دورا مهماً في المسألة العنصرية.

وهناك ظاهرة مشابهة في حالات التزاوج الكثيرة الانتشار بين الأفريقيين والعرب، ولكن لا ترى هذه الظاهرة بتاتا عند زواج الهنود بالعرب، ومن أسباب هذا أن شعر كلا العنصرين مستقيم غير مجعد.

وفي أمريكا الجنوبية يحاول كثير من ذوي الأنساب المختلط Mullatto أن يظهروا بمظهر الإسبانيين أو المستيزو Mestizos، وهذه الحركة تدخل في إحدى صور التبييض، وفي الوقت نفسه تبذل أكبر الجهود لإخفاء أسلافهم الأفريقيين، وكثير من سكان "جراديلوب" مثلا يدعون أنهم قادمون من "مارتنيك" لأن أهالي هذه الجزيرة فيهم نسبة أكبر من دم البيض، وهذا الأمر من الصعب أن تميزه من الناحية العنصرية أو من ناحية البنية حين يدعى أحد أفراد المنطقة أنه قادم من منطقة أخرى أكثر ثراء[1] ومن أغرب الأمور أن يخجل الزنجي في أمريكا إذا أصيب بأحد الأمراض المتوطنة في البلاد على أساس أنه مرض يصيب الفقراء[2] وهذا بطبيعة الحال لا علاقة له بالحرمة التي تتعلق بتجنب ذكر أسماء بعض الأمراض. ومحاولة جعل الشعر مستقيما قد يعد في كثير من الأحيان محاكاة للشعر

---

(1) هناك ظاهرة شبيهة بهذه ترى في الجماعات الشديدة الديمقراطية؛ عندما يحاول أفراد الطبقة الدنيا في حديثهم عن أفراد الطبقة العليا أن يذكروا أسماءهم الأصلية دون تكلف يوهمون السامع بوجود الصداقة والمساواة بين الطبقتين.

(2) قارن مرض البيض الفقراء بالحكة أو انتشار القمل في أجسامهم مما يستنتج منه قذارة أجسامهم مع الخوف من ذكر أحد الأمراض كالسرطان مثلا، أو تحريم ذكره إطلاقا.

الآسيوي بشرط أن يكون الباعث الأساسي له إتباع (الموضة) في تصفيفه اقتداء بالغرب لا مجرد الابتعاد عن الموجة السائدة عند الغربيات. وفي هذا تستعمل الأمشاط الساخنة أو المحاليل المختلفة التي تذهب بتجعد الشعر وأحيانا تستعمل الوسيلتان معا وقد تستعمل الدهون. وعند ذلك يصير الشعر مستقيما دائما. وفي أثناء هذه الإجراءات لا يكون الشعر تام الاستقامة ولكن يجب أن يوهم أنه كان مستقيما ثم تموج من أثر الماء.

ومن العجيب أن الهنود يودون أحيانا أن يكون شعرهم مموجا بينما يطلب الزنوج أن يكون شعرهم مستقيما إلا موجة أو اثنين حتى يبدو الشعر على النمط الهندي.

ومن أعجب محاولات تغيير العنصر المصطنعة ما رآه مؤلف هذا الكتاب بين أفراد الحرس الكوري في جنوب المحيط الهادي فقد طلبوا من الأطباء الذين كانوا ضمن المسجونين "دواء أبيض" يجعل بشرتهم أكثر بياضا ولما رأوا أن كثيرا من المسجونين البيض عملت لهم عملية الختان طلبوا إجراء هذه العملية لهم. لقد عدوا هذا دلالة، على المكانة بل على "اللون" يهبهم الإحساس بأنهم أقرب إلى الغرب من زملائهم من الحراس أو إخوانهم المواطنين.

وفي أمريكا كثيرا ما يطلب الزنوج من المصورين إظهار صورهم أكثر بياضا ما أمكنهم ذلك. وفي الصحف إعلانات منتظمة عن دهون تضمن

مظهرا أفتح للجلد واتجاها سريعا نحو البياض[1] وفي غرب أفريقية سمعت أن مرضى الملاريا يفضلون "الأتبرين" أو "المباكرين" على "النيفاكين" **Atebrine- mepacrine- nivaquine** لأن العلاجين الأولين يصبغان الجلد باللون الأصفر مع تحويله إلى لون افتح تدريجياً لكن بينما أنا أكتب هذا القول فإن الزمن يغير صحته، ومما كتب "سيذولي" **Sithole** أن الوطني كان في العهد الأول يرى التشبه بمن قهره ويطلب رحمة الآلهة. وكان مما يخجله أن اسمه ليس من الأسماء الأوروبية ولكن الأحداث أخذت تقوض أسطورة الرجل الأبيض فإن المؤهلات والكفاية جعلت للون المرتبة الأخيرة وكان لها المكانة الأولى.

وفوق ذلك فإن "حالة تغيير اللون" **tatus chamelionism** هي لا مراء غير مقصورة على الملونين فما علينا إلا أن نذكر رغبة البيض في أن تسمر جلودهم إظهارا لما هم فيه من ترف مكنهم من قضاء وقت الراحة على شواطئ البحار وملاعب الرياضة، والواقع أن السوائل الحديثة المستعملة لصبغ الجلد لا علاقة لها مطلقا بالصحة وهي لا تستعمل في أغراض التجميل– ومع كل فلا فرق في المبدأ بين من هم على أحد جانبي فاصل اللون، وبين من هم على الجانب الآخر.

---

(1) تفرق قبائل الأيبو **Ibos** وكثير من القبائل التي في غرب أفريقية بين السود من الهاوسا **Haussas** وقبائل اليوربا **Jorubas** ذوي اللون الأقل سمرة والأيبو المائلين للصفرة ويرى الأيبو أن هناك نسبة عكسية بين التقدم الثقافي ومستوى الذكاء وبين ما في الجلد من صبغة ومما يجدر ملاحظته أن للشعوب المختلفة نظرة خاصة للألوان. فعند الأشانتي يدعي اللون الأبيض أصفر والأسود أزرق. وفي هولندة يقول الهولنديون أن الإندونيسيين ذوو لون أزرق وتسمى قبائل الهاوسا البيض حمرا ويسمى الملونون ذوو الشعر الأحمر في شرق أفريقية وغربها "الأفريقيين البيض".

الوشم والختان والحجاب:

لما كانت إحدى محاولات التبييض شبيهة بسائر المحاولات الأخرى التي تبذل للدلالة على أن الشخص هو أحد أعضاء بعينها باستعمال شارات خارجية لا مندوحة من بضع كلمات في هذا الموضوع.

وكثير من صور الوشم هي الرموز القبلية لدى كثير من قبائل الزنوج بعضها يدل على حالة الرجل وبعضها يدل على عدد من أنجبت المرأة من أولاد أو قتل الرجل أعداء، والوشم أشبه شيء بالملابس أو شارات الرتب العسكرية ويدخل في هذا ما يناله طالب الجامعة من علامات أو ما يضع الجندي أو البحار على ذراعه من علامات تدل على رتبته. وهذه العلامات إذا دلت على طبقة أدنى فقد تصبح غير مقبولة متى مر عهد الشباب وتطلع الرجل إلى طبقة أسمى[1]، إن الأشكال الكثيرة والصور المتعددة لشوارب قوات الطيران في أثناء الحرب أقل ضررا إلى أبعد الحدود.

ثم إن لدينا الشارات المدرسة وأربطة الرقبة وأشهر العلامات القبلية وأكثرها انتشارا الختان والحجاب.

وعند المصريين القدماء كان الختان من الحقوق التي تمنح لخواص فرعون، إذ كان شارة النخبة المختارة. ولعل إبراهيم قد أخذ هذه العادة إلى أهله عندما نفى من مصر (سفر التكوين أصحاح ١٢)؛ حيث أن الشعب

---

(١) مما حققه المؤلف بين عدد كبير من الجنود أن الوشم الأول الذي يعمله الشاب في جسمه يكون قبل بلوغه الحادية والعشرين ومعظم من وشَمَ من الشباب ندموا على ما فعلوا بعد ذلك.

المختار لم يكونوا بالنسبة إليه إلا الصفوة فقد أمر أن يختن جميع اليهود. وهكذا أصبح ما كان معتبرا دليلا على الطبقة لدى المصريين رمزا قبليا بين الإسرائيليين. وفوق ذلك فإن وشم الختان حال دون اتصال أفراد القبيلة بالقبائل الأخرى. وكان لابد أن ينسب هذا الإجراء إلى سلطة إلهية حتى يصير إجراء عاما ويدلنا على هذا أن إبراهيم استعمل الختان برهانا على عهد مع الله كما جاء في (سفر التكوين ١٧: ٨) "وأعطى لك ولنسبك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلاههم".

ولما اتضح بعد ثلاثين قرنا أن الختان إجراء ذو مزايا صحية قيل- في موجة من الفكر الحر- أن هذا كان من القوانين الصحية في صحف موسى وعم استعماله إلى ما وراء حدود المسيحية والإسلام.

والحجاب كان سمة مهمة للطبقة والجنس والقبيلة، وقد أمر القرآن أن تستر النساء أجسامهن ولا يبدين إلا وجوههن وأيديهن، وفي المدن كانت النساء يحجبن وجوههن وأسبغ عليهن من القداسة ما دعا إلى تسميتهن بالحريم، وكانت نساء الريف يتركن وجوههن سافرة إلا إذا خشين الشمس والأتربة. وعلى هذا فالحجاب كان للمدنيات في البلاد الإسلامية ولما كان من يزور البلاد العربية يقصد المدن غالبا دون الريف فقد أذاعوا الاعتقاد أن "كل" العربيات والمسلمات محجبات، وهكذا اعتبر الأوروبيون أن ما كان من سمات النساء المدنيات وله اتصال وثيق إلى حد ما بالطبقة الراقية هو سمة شرقية عامة، ولهذا قاوم "أتاتورك" استعمال هذا الفاصل بشدة في تركيا وبهذا قضى على ما كان يعد سرا وحرمة في بلاده.

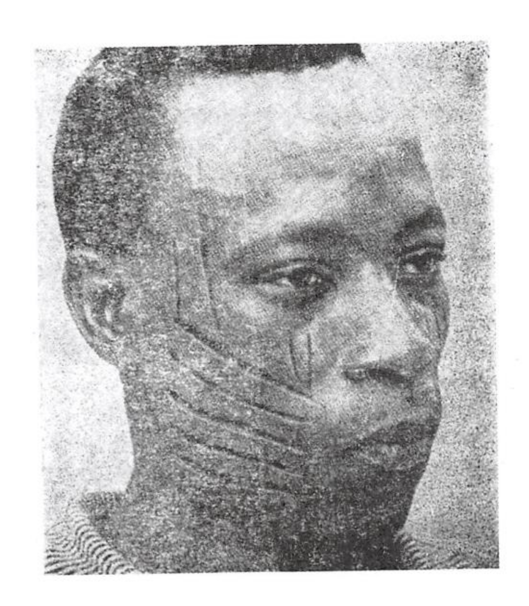
لقد بحثنا فيما سبق فاصل اللون بين فئات من بني الإنسان وعلاقات الجماعات المتوسطة بأصولها وعلاقات الجماعات المتوسطة بعضها ببعض ورأينا أن الدافع لترقية النفس وهو شعور أساسي عند كل إنسان كان يعترضه، ولا يزال إلى حد ما ظاهرة قيام الطبقات التي كان أساسها لون البشرة. ولهذا لم يكن خلاف اللون هو السبب بل كان هو الوسيلة التي دعت إليها حاجة الناس إلى إقامة الحواجز- حواجز بين الأجناس وبين البلاد وبين الشعوب وبين القبائل وبيد الأسر والحاجز بين الأبيض وغير الأبيض ما هو في الحقيقة إلا الحاجز بين أنفسنا وغيرنا. كما قال لوقا: "اللهم أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس" (لوقا ١٨: ١١). ويلاحظ أن هذه الكلمات قالها الفريسي.

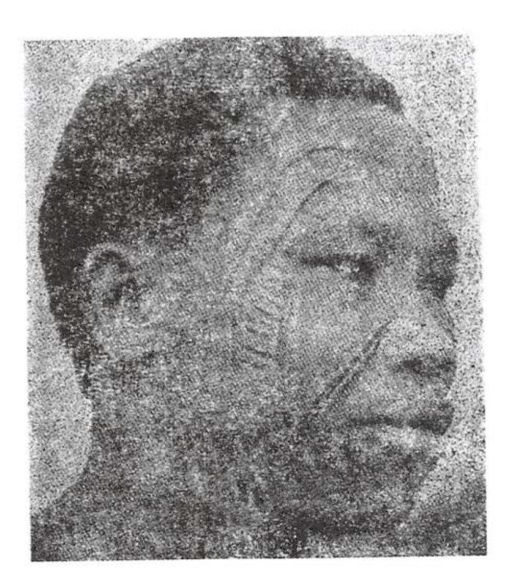






محاولة جعل الشعر مستطيلا وإطالته





إذا كان لون البشرة غير كاف للتمييز الواضح بين القبائل فهناك وسائل أخرى للتمييز، وهذه علامات تعمل في الوجوه في أفريقية الغربية.

الفصل الخامس

أعظم بوتقة لصهر البشر

ليس في العالم بوتقة أشد قوة يصهر فيها البشر من بوتقة جزائر هاواي وموانئ الشرق والمحيط الهادي إلا هذه الأرض الواقعة في الغرب من المحيط الأطلسي؛ حيث عاشت سلالات المهاجرين من أربع قارات مختلفة وعاشت عدة قرون. وهذه البلاد التي تتوسطها جزائر البحر الكاريبي[1] تمتد تقريبا من نهر المسيسبي في أمريكا الشمالية إلى ريو دي جانيرو في أمريكا الجنوبية وهي تنطبق على ما سماه "راموس" **Ramos** "نطاق الزنوج" بالأمريكتين. ولم يدخل في هذه المنطقة المكسيك ولا جواتيمالا حيث لم يقم فيهما في الأصل من الزنوج إلا عدد قليل. ولو أنه في عشرات السنين الأخيرة حدث اندماج ثقافي بين هاتين المملكتين وسكان مناطق الزنوج.

ومن القارات الأربع أمريكا وآسيا وأوربا وأفريقية– التي أسهمت بالمهاجرين منها في مزج العناصر البشرية في الدنيا الجديدة، تقف أسيا وحدها في موقف فريد، وهذا راجع إلى حد ما إلى ما افترض من أول سكان أمريكا جاءوا من آسيا. وهذا الفرض هو سبب السحنة المغولية التي لبعض القبائل الهندية. وكثيرا ما يشاهد في وجوههم ما يسمى بالطية

---

(1) لفظ "كاريبي" له صور مختلفة في اللغات الأجنبية فهو "كاربيش" **Caribisch** في الألمانية، ويطلقون هم على أنفسهم "كالينا" **Kalins** "وكارينا" **Karina**.

المغولية في الجفن، كما يشاهد فيهم الصبغة المغولية التي ترى مع ذلك لدى بعض الشعوب الأخرى، والاعتقاد بأن السكان الأصليين بالأمريكتين قدموا من آسيا مثار للجدل، لأنه من الجائز أن تتفق وجوه السكان الأصليين في أماكن متعددة في العالم وغيرها ممن يقيمون في خطوط عرض مماثلة، على أن الحقيقة المؤكدة أن المهاجرين من الصين والهند وإندونيسيا قد قاموا بما أسماه "جوزيه فاسكنسيلوس" **Jose Vasconcilos** الجنس العالمي **cosomic race** في هذه المنطقة من الدنيا الجديدة.

وسكان المنطقة الكاريبية وأمريكا الوسطى الأصليون يشملون بصفة أساسية المايا **Mayas** والأزتك **Aztecs**(١) ومدينة هؤلاء جديرة بما تلقى من إعجاب، ولكنها ظلت مجهولة حقبة طويلة من الزمن، وقد استعمل المايا حروف الكتابة المصورة، ونحن إلى الآن نستعملها شارات تجارية وشارات لغير ذلك من الأمور، وكانت لهم قدم راسخة في الرياضيات وعلم الفلك، وكانت لهم مجموعة للقوانين وكان لهم تقويم خاص بهم. ومدنية الأزتك بلغت مبلغ مدنية المايا من التقدم ويمكن أن نذكر هنا جانبا أو اثنين من تلك المدنية. كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة في عالم به ثلاث عشرة جنة وعدد منازل الجحيم فيه عشر. وكان الهم الأكبر هو "كتزالكوتل" **Quatzalcoatl** الذي خلق الناس ويشبه "أيسكولابيوس" **Aescolapius** الهندي وهو يمقت الموت وبخاصة موت القرابين البشرية رغما من أنه ضحى بنفسه ليرتفع إلى السماء المقدسة ليظهر في صورة نجمة الصباح ونجمة

---

(١) كان الإنكا **Incas** يقيمون فيما يلي هؤلاء في الظهير القاري من أمريكا الجنوبية.

المساء. وكان له تاج كتاج "أيسكولابيوس" على هيئة ثعبان له أجنحة كأجنحة "هيرمز" Hermes وكانت القرابين البشرية تمثل الذروة في احتفالاتهم الكثيرة، ومعارض الجمال عندهم على نحو ما كان متبعا في كثير من المدنيات الأخرى وكان لآلهة الانتحار منزلة رفيعة عندهم. والواقع أن عددا كبيرا من الناس بينهم كثير من الأطفال يقدمون كقرابين في أيام الأعياد الكبرى في احتفالات تختلف الشعائر فيها حتى لا تبعث على الملل وأشهر احتفال للقرابين الجمعية ما أقيم على هرم "هويتزيل بو كتل" Huitzil Pochtli وهو الموضع الذي أسست فيه كاتدرائية المكسيك قبل كشف أمريكا بوقت قصير. وفي هذه المناسبة أقيمت طقوس انتزعت فيها قلوب حوالي عشرين ألف نسمة. وكان الغرض من هذه القرابين تجديد الشباب لكل من شرب قدرا من الدم، كما استهدفت هذه القرابين إظهار الولاء للآلهة. والقرابين البشرية من التقاليد المعروفة لدى هنود أمريكا، ولو أن بعض القبائل كانت تقوم بهذه العملية على نطاق محدود.

ووأد الأطفال وقد كان يعزى في بعض الأزمنة إلى رغبة الآباء في حماية أولادهم من حياة الرق تحت حكم الإسبانيين كان في الواقع معروفا قبل الفتح الإسباني، وأشير إليه في مخطوطات تقاويم الأزتك.

وعلى خلاف ما جاء في الأساطير اليونانية خاصة "بتنتالس" Tantalus الذي كان جزاؤه العذاب المقيم في جهنم لأنه تقرب للآلهة بلحم ولده المشوي، كان اعتقاد الأزتك أن التضحية بالأبناء تضمن لهم السعادة في السماء.

ومن عاداتهم تكريم الميت بدفن أحد الأحياء معه، وكان يسقي أولا خمير الذرة أو (الشيشة) وبينما كانت الذرة شعار الحياة كانت حبوب الشيشية شعار الموت.

والكاريبيون هم إحدى قبائل الهنود الأمريكيين الذين يقيمون في المنطقة المسماة باسمهم الآن في أمريكا الوسطى. وكانوا من الرحالة الذين لم يؤسسوا ملكا كبيرا، ولكنهم يعتمدون في كسب قوتهم على القرصنة وأكل لحوم البشر.

واللفظ الدال على أكل لحوم البشر في اللغة الانجليزية مشتق من اسم هذه القبائل **Cannibalism- Cannebal**. والقرابين عندهم لم تكن تقدم لآلهتهم ولكنها كانت تقدم لأنفسهم وكانوا يبحثون عن الغذاء اللازم لهم بين القبائل المعادية لهم ومن قبيلتهم نفسها وكانوا يختطفون النساء[1] "لأرواك" و"التيانو" من جزر الأنتيل **Tiano** ويأكلون أزواجهم وبقوا سادة على المنطقة الكاريبية حتى جاء دورهم ومحاهم الإسبانيون من الوجود. وفي جزيرة هاييتي مثلا لم يبق منهم الآن أحد على قيد الحياة.

وما أن كشف كولومبس أمريكا حتى قضى على إمبراطورية الأزتك والمايا وقد لبث كولومبس مدة لا تقل عن عشر سنوات يغري حكومات البرتغال وإسبانيا وانجلترا وفرنسا بالاهتمام بما يعتزم القيام به من الحملات، وكان من المصادفات المحضة أن وهبته "إزابلا" ملكة إسبانيا المال اللازم

(1) وبعض قبائل الأوراك أمكنهم الهرب إلى القارة، وبعض هؤلاء. وبعض الكاريبيين يعيشون إلى الآن في جيانا في أمريكا الجنوبية.

تمهيدا لانتصارها على المغاربة، وهكذا كان أول من قدم إلى الإمبراطورية الهندية من الغرب هم الإسبانيين وأمكن بالخداع والوعود الكاذبة وغيرها مما يعبر عنه الإستراتيجية، أمكن الإسبانيون الذين احتفل بقائدهم "هرناندوكورتس" **Harnando Cortes** وكأنه تجسد جديد لإلههم "كوتزالكوتل" **Coatsalcoatl** ومعه خمسمائة من رجاله وستة عشر جوادا أن يقضوا على الإمبراطورية الهندية. وحيث عجزت حرابهم ومدافعهم أن تمهد لهم طريق الفتح كان الانتحار على مدى كبير والمجاعة والأوبئة هي الوسائل الناجحة للقضاء على الهنود الأمريكيين. ومن نجا من الموت منهم قضى في الرق أيامه الباقية.

وكانت الكنيسة عاجزة عن القيام في الوقت المناسب لمنع هذه الأعمال. وكما يقول "شورز" **Schurs** لم يكن كتاب مثل (كوخ العم توم) يلفت نظر العالم إلى ما كان يحدث على جانب المحيط الأطلسي البعيد، ولم يكن هناك وقتئذ برق ولا صحافة تكشف الستار خارج العالم الغربي عن شرور تحدث فيه أكبر من مجرد العزل الاجتماعي، وكل من نطق بأي احتجاج لا يلتفت إليه، بل كان يمحي احتجاجه وأهم من احتج كان "لاس كاساس" الراهب الذي احتج على الرقيق من الهنود، وإن كان قد شجع الرق بين الزنوج الذين هم أقوى بنية من الآخرين، وانتهى أمره بأن أطلق على احتجاجاته وكتبه في إسبانيا (بالأسطورة السوداء).

ولما استقر الأمر في الدنيا الجديدة أحيط بذراري سكانها الأصليين في معازل في الشمال وتعرضوا للفقر والتشتيت في الجنوب، ولم تقم قائمة الهنود من جديد إلا بعد عدة قرون عن تأسيس بعض الممالك الحديثة مثل

المكسيك وجواتيمالا.

وجاء المستكشفون مع ما جلبوه من الموت والخراب بلغاتهم وعاداتهم ودمائهم[1] وأسس كهنتهم المدارس الدينية التي أصبحت جامعات فيما بعد وضحى جنودهم بنقاء دمائهم على الرغم من معارضة الكنيسة، وأوجدوا جنسا حديثا هم "مستيزو أمريكا الجنوبية" **Mestizo**.

وسنصرف النظر الآن عن الدور الذي لعبته أوربا في خلق الدنيا الجديدة، فنجعل لأفريقية المكان الأول لأنها أمدت المنطقة التي نتحدث عنها بمعظم سكانها.

وأفريقية لم تكن ممثلة على مسرح المنطقة الكاريبية تمثيلا قويا إلا بعد ٢٠ سنة من كشف أمريكا عندما جاءت أول سفينة مشحونة بالرقيق. وقد جاءوا أساسا من المنطقة التي تحيط بخليج غانة. وما يعرف الآن بالكنجو وهي وطن السودانيين والبانتو ويشمل سودان أفريقية الغربية القديم ساحل العاج وغانة وداهومي ونيجيريا[2].

---

(١) لقد أبان التاريخ أن هذه المستعمرات دون غيرها هي التي أقام بها المستعمرون واستعمروها استعمارا تاما هي التي بقيت بعد استقلالها موالية للبلاد التي كانت تابعة لها.

(٢) يمتاز السودانيون الأفريقيون بمتانة تكوينهم وكبر أنوفهم المفلطحة وشفاههم السميكة. وليس للباتو هذه المميزات واستطاع كل منهما أن يحتفظ بنقائه العنصري كما أن الصحراء عزلتهم عن أفريقية الشمالية وحالت الأمراض المدارية دون انتشار البيض بينهم كما حالت ذبابة التسي تسي دون وصول أي إنسان أو أي حيوان إليهم من الشرق، ويعتبر البعض سكان أفريقية الشمالية إما حاميين (ذوي شعر مستقيم وقد يظن أنهم من الجنس القوقازي) وإما ساميين (ذوي شعر مستقيم من المجموعة العربية) وللإسلام واليهودية بعض الأثر في قبائل شمال السودان. وهذه الحقيقة جاءت فعلا ببعض آثار الإسلام إلى البرازيل في صورة حضارة "المالي" **Malse** وهؤلاء الزنوج يؤمنون بالله ويمارسون عملية

ومن ساحل الذهب كان الرقيق ينقلون إلى المستعمرات البريطانية في المنطقة الكاريبية ومن داهومي كانوا ينقلون إلى الأنتيل الفرنسية والهولندية ومن الجزء الجنوبي لأفريقية الغربية إلى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية وبخاصة كوبا وجاميكا[1].

ومن جميع هذه المراكز كان الرقيق يباعون إلى أمريكا الشمالية[2].

وكان نقل الرقيق أول الأمر مقصورا على أصحاب امتياز النقل وعلى أساسه منح الإسبانيون كما منح البرتغاليون احتكار تجارة الرقيق بعض أصحاب السفن. ويجب ألا نغفل في هذا المقام أن الرقيق أنفسهم هم الذين سهلوا إلى حد كبير تجارة الرقيق وجعلوها ميسرة. فهم لم يعرفوا معنى الاتحاد وطالما استرق بعضهم البعض وباع بعضهم البعض قبل كشف أمريكا، باعوا أنفسهم للبيض وللعرب جميعا. ولولا هذا الانقسام بينهم لما وصلت تجارة الرقيق إلى ما وصلت إليه من الاتساع، وكان في البعوض وذبابة التسي تسي ما يكفي لحمايتهم، فإن أحدا من البيض لم يكن ليستطيع التغلغل في "قبر الرجل الأبيض" في غرب أفريقية.

هذا ومن المعروف من جهة أخرى أن الرقيق فضلوا مستقبلا مجهولا

الختان متى بلغوا العاشرة، والزنوج "الفولا فولو" في شمال البرازيل هم أيضاً من سلالة زنوج ذوي شعر مستقيم يمكن أن يكونوا من الحاميين أو من خليط من الحاميين والسودانيين "كلزي" **Kelsey**.

(1) لا يزال يرى في كوبا أثر لثقافة اليوربا **lourba** سكان غرب أفريقية وديانة الفودو **Vodu** في هايتي أصلها من مستعمرات فرنسا السابقة في غرب أفريقية واللغة الكرومانتية في جاميكا ترجع في أصلها إلى منطقة الكرمنتي **Caromanti** في غرب أفريقية.

(2) يهاجر حتى الوقت الحاضر من المنطقة الكاريبية كثير من الزنوج وبخاصة من برتوريكو إلى الولايات المتحدة ويبدو أن زنوج أمريكا الأصليين لا يرتاحون إلى رحلة هؤلاء القادمين الأفريقيين.

على ما هم فيه من الرق تحت سلطان ملكهم الأفريقي، ولاسيما إذا كانوا يعتقدون أن الرق سيلازمهم في حياتهم الأخرى، ويجهلون المخبأ لهم فيها.

ومهما يكن سبب تجارة الرقيق فإن ملايين من الأفريقيين كانوا ينقلون إلى الدنيا الجديدة، وهناك شاركوا السادة البيض(١) في مضمار السبق الجديد. وهكذا بعد ظهور "المستيزو" **Mestizos** جاء "الملاتو". ولنعد إلى الإسبانيين ومن وصلوا بعدهم.

لقد توغل الإسبانيون في داخل القارة بحثا عن الذهب الذي زعموا أنهم جادون في طلبه في أغراض طيبة. ومن السهل أن نتصور أن الهنود أقنعوهم بأن الذهب يوجد كلما توغلوا داخل القارة، وفي الوقت نفسه كان الإنجليز والهولنديون يضطلعون "بالعمل" الذي كان مجاله المناطق الساحلية وقد بدأ هؤلاء تجارة الرقيق الخاصة بهم ونقلوا الرقيق إلى المزارع المختلفة لزراعة القصب والبن والكاكاو والموز والقطن(٢).

والواقع أن حق نقل الرقيق كان مقصورا على الهولنديين الذين كانوا في جنوب الأراضي المنخفضة (بلجيكا الآن) لأن الإسبانيين رفضوا أن يشترك أعداؤهم البروتستانت في تجارة الرقيق. وهؤلاء حاربوا الإسبانيين حتى في المستعمرات وأمكن قائدهم "بيت هين" **Piet Hein** أن يستولى على أسطول الفضة الإسباني وهو لا شك اسم مناسب جدا لأنه اتضح

---

(١) أن أصحاب الرقيق بذلوا الجهد في زيادة الأرقاء وكانوا يسمون عملهم "تربية الرقيق".

(٢) بدأ الزنوج في القرن التاسع عشر يجدون أعمالا لهم في مصانع استخراج الزيت وفي المناجم.

أن (الالدرادو) فيه من الفضة أكثر مما فيه من الذهب[1].

وفي القرن السابع عشر أسس الهولنديون مستعمراتهم في شمال البرازيل ولما أخرجوا منها انتقلوا إلى جيانا ولا تزال جيانا الهولندية إلى الآن هي جيبا بروتستانتيا في أمريكا الجنوبية الكاثوليكية، وقد استعرت الحرب بين الإنجليز والإسبانيين كذلك. وكانوا متحالفين مع الهولنديين في أول الأمر، ولكن الحليفتين دبت المنافسة بينهما واستولت كل منهما على مستعمرة الأخرى. ونيويورك التي أسسها الهولنديون في أثناء هذه الحروب استبدل الانجليز باسمها سورينام المستعمرة الإنجليزية[2].

ولم يكن للإنجليز ولا للهولنديون نصيب كبير في الجنس العالمي **Raza Cosmica** في الدنيا الجديدة، ولكن نشاطهم كان في تجارة الرقيق، ولم تتجاوز فتوحهما بضع جزائر ومساحة صغيرة من القارة[3] ولم يكن الفرنسيون مهتمين أول الأمر كذلك، وقد جاء بعضهم طهاة في السفن أو طلبا للببغاوات والأصباغ أو ريش الطيور، وبعضهم جاء مدعيا أنه من الإسبانيين، لأن إسبانيا لم تكن راضية على البروتستانت فيها ولا في المستعمرات الإسبانية ولهذا كانت المستعمرات الفرنسية محدودة المساحة كالمستعمرات البريطانية مقصورة على بضع جزر مثل هاييتي ومارتنيك وكاين في القارة الأمريكية، وهي التي صارت فيما بعد مقرا للمحكوم عليهم.

---

(1) وهذا واضح من لفظ أرجنتينيا، وريودي لابلاتا **Riodela- plata** وهما اسمان فيهما إشارة إلى الفضة.

(2) لم يحصل الإنجليز على حق جلب الزنوج الأفريقيين إلى المستعمرات الإسبانية إلا في سنة ١٧١٣.

(3) دمرارا وسورينام **Demerara- Surinam**.

أما البرتغاليون وقد كانوا أكثر اهتماما بالهند التي وجدوا طريقا إليها مروراً برأس الرجاء الصالح، لم يظهروا على مسرح أمريكا الجنوبية إلا بعد الانجليز والهولنديين ولو أن عددا منهم جنحوا إلى شاطئ البرازيل سنة ١٥٠٠ وضموا إلى ملكهم ثالث أقطار الدنيا اتساعا، ولكن الحق أن البرتغاليين لم يكن لهم كبير الاهتمام بهذه المنطقة إلا بعد سنة ١٨٠٠ بوقت وجيز عندما فر الملك "جو الرابع" **Goao** أمام جيوش نابليون المنتصرة ونقل حاضرة الإمبراطورية البرتغالية إلى البرازيل. وكان "البولستا" **Paulistas** أول "المستيزو" من الهنود والبرتغال في المنطقة المحيطة "بسان باولو" **San Paulo** ثم عظم شأن البرتغاليين بعد ذلك حتى صارت اللغة البرتغالية هي لغة البرازيل.

ومما يلفت النظر أن الجنس العالمي **Raza cosmica** الذي يقطن أمريكا الجنوبية ليس فيه ما يمثل الإيطاليين بتاتا[1] وبخاصة إذا ذكر أن "كولومبس" الذي كشف الدنيا الجديدة من "جنوة"، وأن "أمريجو فسبتشي" الذي خلع اسمه على القارة من "فلورنس" ولم يهاجر كثير من الإيطاليين إلى أمريكا الجنوبية إلا من وقت قريب، والإيطالية لغة بعض المناطق في الأرجنتين.

أما نصيب ألمانيا في العالم الجديد وفي العنصر الجديد فأقل من ذلك بكثير، واقتصر عمل الألمان على مد حملات الأمم الأخرى بالمال، ونظرا إلى أن ألمانيا لم تكن دولة بحرية لم يكن لهم فضل في نشأة الدنيا الجديدة.

---

(1) ولهذا يفضل اسم أمريكا الأيبيرية على أمريكا اللاتينية.

ولقد أسسوا– مع هذا– مراكيبو في فنزويلا وكان أحد مؤسسي سنتياجو في شيلي المعروف باسم "بارثولوميوس فلوريس" **Bartholomius Floris** كان اسمه "الهر بلومنتال". وأغلب الظن أنه لم يكن ألمانيا قحا، وعلى هذا يمكن الجزم بأنه باستثناء عدد قليل من التيوتونيين البرازيليين بقيت أمريكا اللاتينية خالصة من الدم الألماني.

وكان أثر "الإسكندناويين" مقصورا على ثلاث من أصغر جزر الأنتيل، ولقد حظيت جزيرة "سانت توماس"[1] الدانمركية بمزايا الحياد في أثناء الحروب الكثيرة التي قامت بين الدول الاستعمارية وكان بعض سكانها من الدانمركيين وسائر سكانها من الفرنسيين والهولنديين. ولم يظهر في هذا الميدان أثر لأوربا الشرقية إلا مرة واحدة في أثناء العهد الاستعماري الأول، وذلك عندما وصل إلى "هاييتي" الجنود الهولنديون التابعون لنابليون. ولم يبق لهؤلاء أي أثر اليوم إلا ما قد يرى مصادفة من سكان "هايتي" من ذوي العيون الزرقاء ولا أثر لهم غير ذلك. والبوتقة لا تكون كاملة ما لم يكن بها شيء من الشرق، ففي حوالي ١٨٩٠ هاجر نحو ٦٠ ألف تركي وشامي إلى البرازيل، وسبق أن وصل بعض اليهود المستعمرين إلى أمريكا الجنوبية، وهؤلاء جاءوا من إسبانيا والبرتغال أخرجتهم محاكم التفتيش لأنهم رفضوا قبول الديانة المسيحية وكان عدد من سمح لهم بالإقامة من اليهود في المستعمرات الإسبانية والبرتغالية قليلا، ومعظم هؤلاء السفارديم هاجروا إلى المستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية، وجاء السفارديم أيضا

---

(١) بيعت للولايات المتحدة سنة ١٩١٧.

إلى أمريكا الجنوبية من ألمانيا[١].

العصر الذي أعقب إلغاء الرق:

بعد إقصاء فترة الاستعمار الأولى التي كان الرق أبرز ما اتصفت به، جاء عهد ثان اختلطت فيه الأجناس البشرية الجديدة استمر طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومن الغريب أنه بعد زوال السيادة الإسبانية والبرتغالية في أمريكا الجنوبية ظل الاستعمار باقيا في المساحات الصغيرة التي كانت تحت الاحتلال البريطاني والهولندي والفرنسي وهي التي تتفق تقريبا وما يسمى "منطقة الزنوج" وقد ألغى الرق[٢]. أما الرقيق المحررون الذين حلوا محل الهنود قبلا فقد تخلوا عندئذ عن العمل في المزارع وقام بعملهم غيرهم من العمال[٣].

(والزحف الكبير) إلى المدن الذي يفسر إلى حد ما اتساع المدن الخاصة بالزنوج جعل توفير اليد العاملة بالنسبة إلى المزارع العلمية مسألة حياة أو موت، وكانت التجربة الأولى جمع عدد من العمال الصينيين،

---

(١) واليهود الذين قدموا من إسبانيا كانوا يسمون بالمارانو **Marrano** مثل المارون **Marrons** أو الزنوج الهاربين. والاسم الأول يعني خنازير، وكان يسمى به اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، ولفظ مارار **Marrar** يعني سقوط أو هجر أو هرب وأغلب الظن أن لفظ مارون مشتق من مارار، والفرق بين مارانو ومارون واضح نظرا إلى أن الرقيق الذين لم يهربوا لم يسموا مارون. ولعل الإسبانيين لم يقصروا تسمية الخنازير على اليهود وحدهم بل سموا بها الهولنديين الذين نزحوا من الأراضي المنخفضة.

(٢) ألغت بريطانيا الرق سنة ١٨٣٤ والدنمارك ١٨٤٨ وهولندة سنة ١٨٦٣ والولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ والبرتغال (البرازيل) سنة ١٨٨٨.

(٣) ولتعويض النقص في عدد العمال كان يقبض على الزنوج لأقل مخالفة وينقلون إلى الأعمال الزراعية. وهذا النظام كان متبعا بكثرة في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة.

ولكن اتضح عدم كفايتهم للزراعة كما اتضحت مهارتهم في إدارة الأعمال أكثر من العمل في المنطقة الحارة، ثم أخذت الحكومتان البريطانية والهولندية تشجعان الهجرة من الهند البريطانية، وتبع ذلك هجرة الإندونيسيين إلى جيانا الهولندية. ولم تحدث أية هجرة غير ذلك إلى المنطقة الكاريبية.

* * *

ويجدر بنا أن نقول كلمة عن هجرة الرقيق المحررين وأبنائهم إلى المدن. وهذه الهجرة غير "هجرة الفقراء الهاربين من الفقر"- ماركس- من مناطق الريف الأوربي حيث أن مستوى معيشة الرقيق كانت أعلى في الريف منها في المدن. وكان السبب الأول لهجرتهم أنهم أشبه شيء بالرقيق في المزارع، ومن سوء الحظ أنهم لم يجدوا الوسيلة للانتقال من الزراعة إلى الصناعة في المدن، فهم لم يهربوا من الفقر بل هاجروا إلى الفقر، إذا لم يكد يوجد لهم أي عمل في المستعمرات. ولم تتحسن حالة الزنوج إلا عندما ذهبوا إلى المراكز الصناعية كمناطق استخراج البوكسيت والبترول.

الخطوة التالية في الاندماج العنصري:

يكفي ما سبق في بحث العوامل التي أثرت في بوتقة الشعوب التي حاربت وتزاوجت في المنطقة الكاريبية وفي أمريكا الجنوبية كلها.

لقد نبت عنصر جديد في الدنيا الجديدة وظهر نوع جديد من الإنسان العاقل وهو يمثل من الناحية الأنثروبولوجية كثيرا من الأجناس، وذلك حسب مجموعات الكروموزومات التي في دمه- مع ملاحظة أن البيض والسود متساوون في عددها- أما بشرته فهي إما فاتحة أو قاتمة،

وأما شعره فمستقيم أو مجعد.

والبوتقة لا تزال تغلي فقبيل الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٠ كان سكان جينا الهولندية من البيض والملونين ولم يكن بينهم هندوستاني واحد (= هندي أسيوي) في المجلس النيابي بسورينام. ولكن في الفترة بين ١٩٤٥– ١٩٥٦ لم يقل عدد الهندستانيين عن أحد عشر عضوا من مجموع أعضاء المجلس البالغ عددهم خمسة وخمسين عضوا[١].

وفي محاربتنا الشديدة ضد التفرقة العنصرية نود لو أن نتجنب استعمال لفظ "عنصر" عند الإشارة إلى بوتقة المنطقة الكاريبية، ونستبدل به (الجماعة العنصرية) ولكن الذين يعرفون المنطقة الكاريبية لا يرضيهم هذا فهم يعلمون أنه لم تتطور هنا جماعة عنصرية فحسب بل تطور نوع جديد من السلالة الإنسانية له خواصه العنصرية. وفي شعب المنطقة الكاريبية المختلطة تزوج الزنجي الضاحك المرح بالهندية الصامتة المنطوية أو الأوربية البيضاء المستعمرة، والرجل الأبيض بما في نفسه من جشع في امتلاك الأرض تزوج الهندية التي تريد أن تكثر عنصرها المنقرض، واقترن الكريولي المرح بالأسيوية العاطفية، وهكذا أصبح اللون الأبيض أميل إلى السمرة واللون الأسمر أميل إلى البياض[٢] وعلى هذا لم تنتج بيضة

---

(١) لم يزد الهندوستانيون في عددهم فحسب بل زادوا كذلك في قوتهم الاقتصادية، وهم قوم لا حاجة لهم إلى البذخ وقد مكنهم اقتصادهم من أن يكونوا قوة عاملة رخيصة، ولعلهم الشعب الوحيد في جنوب أمريكا الذين لم يطلق عليهم لفظ (كولي) **Colie**، ويخشى "فورنيفال" **Furnivall** أن تسود نظرية "بقاء الأرخص" في مجال المنافسة الاقتصادية.

(٢) هذه من مميزات بعض الشعوب ولكن إلى حد بسيط جدا؛ فمثلا يلتزم الهنود الصمت؛ لأنهم يخشون أن تسمع الأرواح الشريرة كلامهم فتعرف مقر فرائسها القادمة.

كولومبوس طائرا بل خرج منها عنصر جديد.

ولو لم يكن في هذه البوتقة عنصر اللون لكان الموقف غاية في البساطة، وعندما تتحد الأجناس في اللون يسهل اختلاطهم ويحدث الاندماج بينهم دون أي نظر إلى اختلاف العنصر، قال "كبلنيج" من "النورمان" و"الأنجلوساكسون" صب الإنجليز عنصرا واحد في ثلاثة قرون. ومثل هذا يحدث ببطء عند اختلاف اللون كما في حالة اندماج الآريين والدرافيد. وفي عنصر أمريكا الجنوبية الحديث.

وهذا يثير سؤالين لا مفر من الإجابة عنهما.

بوتقة صهر أو خلط.

(١) هل الأجناس المختلفة أو الجماعات العنصرية قد امتزجت فعلا بعضها ببعض أم هي لم تزد على الاختلاط؟

(٢) وهل مدنية "المستيزو" و"الملاتو" في الكاريبي صهر أو خلط.

لو أن العناصر قد صهرت معا فأخرجت عنصرا جديدا لجاز لنا القول بأن شعبا جديدا قد أبدع، أما إذا كانت قد اختلطت فإنه من الممكن أن نفرق بين مكوناتها.

والسؤال الأول سبق توجيهه من قبل. ومن رأي "همفري" Humphrey "عن ستودار" Stodard أن بوتقة الصهر لا تعطينا في ألف عام الصهر الذي يأمله المتحمسون. ستعطينا في مدى أجيال كثيرة متعاقبة عددا من الأجيال المتباينة، ونظرا إلى أن الخلف يرجعون إلى

أسلافهم في خصائصهم سيزيد التنوع في الأسلاف من شكهم في وراثاتهم. سوف لا يرثون خلقا كاملا متناسقا ثابتا لأن مثل هذا الخلق لا يوجد سيرثون خليطا من الخصائص المتنوعة أسهمت فيها شعوب متنوعة كذلك، وسيكون لهم من وراء ذلك هذا الميراث بعض الخصائص التي تنطبق على الانطباق على خصائص السلف، ويحرمون حرمانا تاما من بعض الخصائص الأخرى، وهذا الذي سيحرمون منه يستره سلوك الجماعة الذي يلهم أعدادا كبيرة من الناس آمالهم ومطامعهم.

ولنحاول الإجابة عن السؤال الثاني، ذلك لأنه من السهل أن نضع أيدينا على العناصر الأصلية لمدنية "المستيزو" و"المولاتو"، ومع هذا فالإنسان لا يستطيع التنبؤ بأي العادات سيكون لها الغلبة في أثناء عملية "الصهر".

وفي المنطقة الكاريبية يمكن تمييز المدنيات المختلفة بوضوح، وفي كثير من الأحوال كان امتزاجها قليلا.

ومهما كان الامتزاج عظيما ففي وسعنا أن نميز الديانات المختلفة والطقوس الدينية المتنوعة. وعلى الجملة ليس الخلاف كبيرا بين مختلف المدنيات فليس هناك إلا حالة ثقافية تقترب كل مدنية فيها من الأخرى أو تطغى عليها.

وإذا أردنا أن نفتش عن مدنية عامة في المنطقة الكاريبية لا نجد إلا روحها وعاداتها، وإلى هذه الروح يرجع شعور الحرية وانعدام كل القيود. إن وجود القبعة اليعقوبية على كثير من الرؤوس في أمريكا الجنوبية تدل على

أن هذه الشعوب هم أصدقاء جديدون للحرية والمساواة. وعلى النقيض من الحرية الروحية التي يستشعر بها البوذي في الآخرة؛ فإن سكان أمريكا الجنوبية حريصون على حريتهم في هذه الحياة. إنه حر ويشعر بالحرية ولا يخشى أحداً. لا تقيده العادات ولا آداب اللياقة ونظرته إلى الحياة (استمتع بيومك) **Carpedien** وليس معنى هذا أنه ميال للكسل، ولكن فلسفته في الحياة تقتضي أن يسرع ولكن برفق **Festina lente**، وهذه الفلسفة تسود في الأجواء الحارة على خلاف السرعة التي من خصائص سكان البلاد الباردة.

ونعود إلى السؤال الأول الذي يبحث إن كانت الأجناس المختلفة والجماعات العنصرية المختلفة قد امتزجت حتى صارت عنصرا واحدا مخالفا لها، أم هل اختلطت كما اختلطت المدنيات ليس غير، وهل من الصواب أن نتحدث عن بوتقة صهر امتزجت فيها العناصر المختلفة الأصلية، أم عن مخلوط يمكن تمييز كل العناصر التي يتركب منها، وقانون "مندل" يؤيد تأييدا كاملا الاحتمال الثاني. فإذا قيل إنه "عنصر مختلط" فهذا تعبير صادق لأن الجينات التي تحمل جميع الخصائص الموروثة لا يمكن أن تمتزج كل منها بالأخرى. و"فان لير" **Van Lier** يستخدم اصطلاح التمييز **Segmentaris** ليعبر به عن رأيه؛ بأنه ليس هناك فقط جماعات عنصرية بل أفراد أيضا، وهؤلاء جميعا لا يمكن أن يكون امتصاصهم كاملا. ونظرية "همفري" التي أشرنا إليها فيما سلف تستبعد "بدعة بوتقة الصهر" كلية. والملونون أنفسهم يعتبرون هذه الظاهرة خلطا لا اندماجا: "إن بطن المرأة الملونة لا يلد إلا ما يشبه الثوب المتعدد الألوان".

إن خير الأسماء الذي يطلق على اختلاط الأجناس هو "فسيفساء الجينات" **Mosaic of genes** وفي كل فرد يختلف موضوع الجينات. والمستقبل وحده هو الذي يحدد المدى الذي تتم فيه الوحدة المثالية بعد التنوع، ومما كتبه "فيرا كلسي" **Vera Kelsy** "أنه كان لابد من مرور عدة قرون حتى يمكن القول "أنا برازيلي من البرازيل".

يتضح مما تقدم أنه ليس من الصواب أن يقال أن هناك عملية صهر وامتصاص للأجناس. إن الجنس العالمي **Raza Cosmica** بما في هذا التعبير من قوة قد أخلى مكانه لشعار جديد هو "أمريكا اللاتينية إلى الأبد".

الفصل السادس

خاتمة

كل الناس إخوة (غاندي).

الإنسان ذئب الإنسان (بلوتس).

كان الهدف الذي توخيته في هذا الكتاب أن أبين الدور الذي يلعبه اللون في حياة الإنسان. إن كل زيادة غير عادية في المادة الملونة للبشرة هي دليل سوء الحظ؛ لأنها إذا خرجت عن الضبط انعكست آثارها على البيض والسود وتتجلى هذه الآثار الخارجية في يقظة الشعوب الملونة. واختلاط الأنساب هو أمر طيب ما لم يحدث ما يدعو للإثارة والغضب، واختلاط الأجناس إذا ما سار سيره الطبيعي فقد يكون مدعاة لحسن التفاهم والاحترام المتبادل. والاستثناء الوحيد ذو الأهمية الكبرى سنعالجه فيما يلي:

إن كثيرا من الناس على اتفاق على أن لون البشرة قد اعتبر ظلما أساسا لما نسميه المسألة العنصرية. والواقع أن المسألة العنصرية كما نفهمها عادة ما هي إلا خرافة– خرافة خلقت لتكون ستارا لمشكلة مخالفة كل المخالفة عنها– هذه المشكلة هي غريزة المنافسة بين الناس، وفي هذه المنافسة ليس للون البشرة إلا ما يشبه اللون الذي يختاره أي ناد له أو "رباط الرقبة" الجامعي الذي يميز مدرسة عن أخرى، والتداول الذي يحدث في الصفوة الذي نسميه "تطورا" أو "ثورة" إذا حدث في مجتمع من جنس

واحد يعد "مشكلة عنصرية" إذا ما كان بين عنصرين.

والخلاصة أن المشكلة العنصرية ما هي إلا صورة جديدة لصراع الطبقات الذي تمثل كل طبقة فيه مجموعة أثنوجرافية معينة بين الناس.

ومفهوم "الطبقة" يمكن أن يكون لها معنيان؛ الأول: تكوين الطبقات حسب الحالة الاجتماعية أي أن هناك تراتبا في التبعية الاجتماعية. هذه التبعية تكون إما للكنيسة بما لها من سلطان ديني أو ثقافي، أو تكون لأحد السادة الذين ورثوا السلطان الحربي والاقتصادي.

والمعنى الثاني: أن (الطبقة لا تتضمن إلا جماعة متباينة من الناحية الاقتصادية وهذا يصبغ المسألة العنصرية بصبغتين طبقيتين أهمهما الصبغة الاقتصادية).

ومما يزيد المشكلة تعقيدا أن لون البشرة وراثي لأن الانتقال إلى وضع آخر أو طبقة أخرى لا يمكن حدوثه تدريجياً أو مستترا، والطبقات تتكون على أساس نصوص دينية أو غير دينية تدعو المعذبين في الأرض إلى أن يتحملوا قدرهم بالرضى والصبر أو تعدهم بالخلاص من طبقاتهم الدنيا بعد الممات. ولا يمكن أن يقضي على المشكلة العنصرية إلا إذا بطل تميز الجماعات العنصرية بلون بشرتها بمعنى أن اللون الأبيض يكون بمثابة البنيقة البيضاء واللون الأسود يكون بمثابة الدثار الأسود والاستثناءات لهذه القواعد العامة غير كافية لستر حقيقة الأمور.

ونحن نعرف من الناحية الطبيعية أن الطيور على أشكالها تقع، والطيور التي يختلف ريشها لا يألف بعضها بعضا. ولنذكر أن بعض البجع

لديه حاسة اللون ويبدو أن لدى الإنسان ما يشبه هذه الظاهرة التي توجد لدى الحيوان، وهذه الظاهرة تصبح "مشكلة" كلما سادت إحدى الجماعات سائر الجماعات. وعلى هذا فالقول المأثور بأن "جميع الناس ولدوا وهم سواسية في الحقوق" لا وزن له إذا عجزوا عن أن يسيروا في مضمار الحياة متمتعين بحقوق متساوية، وهذا بطبيعة الحال لا يتعلق بتكوين الطبقات الذي يعتمد على الطموح الشخصي، ولكنه يتعلق بتكوين الطبقات الذي يعتمد على المبادئ المصطنعة.

وكثيراً ما قيل إن الجماعة المتفوقة اليوم تحفر بأيديها قبورها بتعضيد فكرة المساواة بين كل الناس، ومع هذا فالخطر الذي يأتي من كثرة تعداد الفريق الآخر ينمحي إذا زال من نفوسهم الإحساس بالتوازن الأيكولوجي الذي يوجد بين جميع الملونين في موفقهم العدائي من البيض، والامتصاص الحقيقي للجماعات المختلفة غير ممكن في وقت قصير. وربما يحدث في مدى عدة أجيال بين الجماعات الكبيرة بين الناس. والذي يحدث عادة هو امتصاص جزئي ومحاولة التعجل فيه ربما أدت إلى عكس المراد.

هذا وبعض التغييرات مثل "التسامح العنصري" و"الأخوة" قد يشم منها رائحة التفرقة وقد تؤدي إلى علاقة الأخ الأكبر **Big Brother** أو تتضمن أن العناصر متحدة لغرض مشترك ليس صالحا بطبيعته لتثبيت العلاقة الطيبة بين الناس. ومن جهة أخرى هناك خطر يهدد العلاقات الإنسانية إذا أسيء فهم التكوين البيولوجي الطبيعي لبعض الجماعات المنفصلة فاعتبر أنه تمييز عنصري.

نخرج من هذا بأن أفضل الحلول هو الصداقة على أساس من المساواة، ولكن مع حرية الاختيار، ومع احترام الشخصية الإنسانية وحمايتها.

وصفوة القول:

١- المسألة العنصرية كما تفهم عادة هي مسألة الطبقة أو الحالة الاجتماعية لكنها تستتر وراء ألوان الناس المختلفة.

٢- التكوين الأثنوجرافي أو البيولوجي للجماعات يختلف اختلافا أساسيا عن مفهوم التمييز العنصري. وعلى هذا فالتجمع العنصري لا ينطبق على التمييز العنصري، ومفهوم كل من الأمرين مختلف اختلافا جوهريا عن الآخر. ومن المغالطة أن يعتبر الأول مبررا للثاني سواء أطلق هذا التعبير إطلاقا عاما أم كان التعميم أساسه نسبة الخطأ إلى شعب أو جنس لتصرف صدر من شخص بعينه أو من جملة أشخاص.

٣- التفرقة العنصرية لا يمكن أن توجد إلا إذا وجد التمييز الطبقي.

٤- إذا فقدت إحدى الجماعات السلطة انحلت الجماعة المعارضة إذا كان اتحادها مبنيا على المعارضة دون غيرها.

٥- كل محاولة بناء حسن العلاقات على أساس غير الصداقة القائمة على المساواة لا تنتهي إلا بالفشل.

٦- إن وظيفة البشرة في تحديد الجماعات الإنسانية التي ينقسم إليها البشر لم تكن أصلا بأن حال من الأحوال عاملا من عوامل العلاقات السيئة بين الناس.

٧- إن يقظة الشعوب الملونة التي تتجلى في مقاومة الاستعمار هي ثورة عالمية أبقى على الزمن من الثورات السابقة. إنها ثورة الطبقة الخامسة، بينما كانت الثورة الفرنسية هي ثورة الطبقة الثالثة والثورة الروسية هي ثورة الطبقة الرابعة. إن اللون في هذه الثورة القائمة الآن هو الرداء أو الرمز وإنه لوهم أن يظن أحد أن من الممكن وقف هذه الثورة، إن الممكن هو توجيهها إلى أفضل المسالك بتعاون الطرفين المشتركين.

وكل محاولة للرجوع إلى أصل ظاهرة المنافسة الإنسانية التي تدعوها المسألة العنصرية تقتضي الرجوع مدى بعيدا في التاريخ، إن المنافسة هي غريزة فطر عليها الإنسان منذ كان في جنة عدن عندما اتهم آدم حواء بأنها ضعيفة مخطئة "هي أعطتني من الشجرة فأكلت[١] هي الكلمات التي عرفنا منها بعد أكل التفاحة من شجرة الحكمة الفرق بين الخبيث والطيب ومن حسن الحظ أنهما لم يأكلا إلا تفاحة واحدة، ومن جهة أخرى لو لم تحدث الخطيئة لعاش في الجنة جنس واحد[٢].

---

(١) سفر التكوين ٣: ١٢.

(٢) مما تجدر الإشارة إليه أن القرآن الكريم لا يجعل المرأة مسئولة وحدها عن هذه الخطيئة؛ يدلنا على هذا قول الله تعالى (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ومُلْكٍ لاَّ يَبْلَى) "سورة طه ١٢٠".

ومرة أخرى نجد أن إبليس توجه إلى آدم وحواء بالإغراء في قوله تعالى في سورة الأعراف (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا ووريَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ) رقم الآية ٢٠.

ونزول آدم وحواء إلى الأرض كان بعد أن تقبل الله منهما التوبة (وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهَدَى) سورة طه رقم الآية ١٢٢.

ولذلك فحياتنا على الأرض ليست عقابا على خطيئة وإنما هي قيام لخلافة الله في الأرض (المراجع).

وغريزة الفاصل العريقة **Barrier instinct** ضامنة لانعدام الإنسان الواحد المتكرر فإن الرجل "المتفرد" الذي نسميه بالشخصية سيحاول أن يتفوق بطريقة أو بأخرى. وهذا الإلحاح الدائم الذي يدفع كل إنسان إلى محاولة التفوق على الغير هو الباعث الأساسي لرفعة الإنسانية، وهذه الغريزة يمكن أن تصاحب أو تؤدي إذا لزم الأمر إلى تكوين الجماعات الإنسانية وهو ما يدعو إلى تدعيم المكانة التي يبلغها في معركة الحياة... وإلى السيادة.

وهذه المكانة لن تكون مدعمة باستمرار لأن الجماعة الخاضعة ستستمر في معركة الحياة كذلك. فإذا كسرت هذه الحلقة المفرغة فإن الإنسان الصاعد ذا الضمير الحي **Ascendens et conicians** يستحق أن يسمى الإنسان العاقل. إنه هو الذي يتعلم ضبط غرائزه البدائية ويفهم أن مكانة الإنسان ورفعته تقاس بفضائله الذاتية، فإذا بطل اعتبار اللون حقا مكتسبا بالوراثة، فلربما ينتهي العهد الذي يساء فيه فهم وظيفة الجلد، ويساء فيه استخدامها في تقسيم النوع البشري إلى جماعات.

المراجع

REFERENCES

– Ackerman Nathan W. and Jahoda Marie, Anti-Semi ism and Emotional Disorder: A Psychoanalytic Interpretation, Harper and Brothers, 1950.

– Alexander W. W. Racial Segregations in the American Protestant Church. Friendship Press, 1946.

– Allport Gordon W. Prejudice: A Problem in psychological and Social Causation. Journal of Social Issues, Supplement Series, November 1950.

- Catharsis and the Reduction of Prejudice, Journal of Social Issues, December 1945.

– The Nature of Prejudice, Anchor Books, New York, 1958.

– Baber Ray E. A. Study of 325 Mixed Marriages. American Sociological Review; October 1937.

– Balandier G.: See Lind.

– Bavink J. H. Het rassenuraagstuk. Gereformeerd Weekblad. Dec. 1955.

– Berkhof A. Angst uoor Azië. Nederland's Boekhuis, Tilburg.

– Berr Henri: See pittard.

– Bittrich F. O. Orient ohne Schleier. Safari-Verlag, Berlin, 1950.

– Blake Robert and Dennis Wayne. The Development of Stereotypes Concerning the Negro. Journal of Abnormal and Social Psychology. October, 1943.

– Bogardus Emory S. Immigration and Race Attitudes. D.C. Heath and Co, 1928.
– Bond H. M. The Education of the Negro in the American Social Order. Prentice- Hall Inc., 1934.
– Bosshard W. Conflict en Intrigue in the nabije Oosten. Meulenhif Oral., Amsterdam; 1955.
– Bowles Chester. Africa's Challenge to America. The Regents of the Univ. of Calif., 1954.
– Boyd william C. Genetics and the Races of Man. Little, Brown and Company, 1950.
– Brigham R. I. The Price of Segregation. Survey Graphic, May, 1946.
– Brookes E. H. South Africa in a Changing World. Oxford University press, 1953.
– Brown Sterling A. Negro Character as Seen by White Authors. Journal of Negro Education, January 1933.
- The Negro in American Fiction. Associates in Negro Folk Educaton, 1937.
– Bryce; See Rose Arnold.
– Bunch Ralph. The Negro in the political Life of the United States. Journal of Negro Education, July 1941.
– Burns Alan. In Defence of Colonies. George Allan and Unwin Ltd publ., London, 1957.
- Colour prejudice. Gorge Allan and Unwin Ltd. Publ., London, 1948.
- History of the British West Indies. George Allan and Unwin Ltd. Publ., London, 1954.
– Buss Cl. A. Sout- Kust Asia and the world To-day- Van Nostrand, New York, 1958.

- Butcher M. J. The Negro in American Culture. A Mentor Book, The American Library, 1956.
- Campell A, Les deux Bisages ed l'Afrique, Libraire Hachette, Paris, 1955.
- Centrel Hadley. The Psychology of Social Movements. John Wiley and Sons, 1941.
- Carothers J. C. The African Mind in Health and Disease. WHO, 1953.
- Carter G. M. The Politics of Inequality. South Africa since 1948. Thames and Hudson, London, 1958.
- Chaia Jean. Echec d'nne tentatiue de colonisation de la Guyane au 18e Siècle. Biologie médicale, Specia April, 1958.
- Charbonneau- Bauchar R. Blancs et Noirs au Rendez Vous. La Colombe, Paris, 1956.
- Coll C. Van. Gegeuns ouer Land on Volk uan Suriname R. K. Missie Paramaribo 1903 en De Surinamer 1894- 1896.
- Collier J. Indians of the Americas, The New American Library, New York, 1948.
- Congar Yves M. J. The Catholic Church and the Race Questions. UNESCO series on The Race Question 1953.
- Daniel V. E. Ritual and Stratification in Chicago Negro Churche. American Sociological Review. June 1942.
- Davie T. B. Education and Race Relations in South Africa, S.A. Institute of Race Relations Johannesburg.
- Davis Allison W. Caste Evonomy and Violince. American Journal of Sociology, July 1945.

– Dean V. M. The Nature of the Non-Western World. Mentor Books, The New American Library, 1957.

– Dean J. P. and Rose A. A. Manual of Intergroup Relations. The University of Chicago Press, Chicago, 1955.

– Delafosse Maurice (I). Civilisations Negro- Africaines. Paris 1925.

– Denis de Rougemont. Het Westers Auontuur uan de Mens. Uitg. Mij Holland, Amsterdam, 1958.

– Devlin P. et al Report of the Nyasaland Commission of Inquiry. London, 1959.

– Dodson D. W. Religious Prejudice in Colleges. American Mercury, July 1946.

– Drexler J. P. Front dar Gekleurde Rassen. W. de Haan, Zeist, 1957.

– Dunn L.C. and Dobzhansky. Heredity, Race and Society. The new American Library, New York, 1946.

– Fraenkel E. and Bracher K. D. Staat und politik. Fiscber Bucherei, Frankfurt, 1957.

– Frankenberg F. von. Meschenrassen und Menschentum. Safari Verlag, Berlin 1956.

– Frazier E. F. The Negro in the American Social Order.???? mal of Negro Education, July 1935.

- The Negro in the United States. The Macmillan Company, 1949.

- Negro Youth at the Crossways. American Council on Education, 1940.

- Ethnic Family Patterns: The Negro Family in the United States. American Journal of Sociology, May 1948.

- Sociological Theory and Race Relations, American Sociological Review, June 1945.
– Furnas J. C. Good bye to Uncle Tom. Seeker and Warburg publ., London. 1956.
– Garvey Marcus: See Stonequist.
– Ghurye D. Caste and Class in India. Asia Publ. House, Bombay; 1957.
– Ginsberg Morris. Sociology. Oxford Univ. Press., 1955.
– Glick C. E. Collective Behavior in Race Relations. American Sociological Review, June 1948.
– Glock C. E. See Lind A. W.
– Gobineau Arthur de (trans. by Collins). The Inequality of Human Races. G. P. Putnam and Sons, 1915.
– Goldenweiser Alexander. Anthropology.
– Appleton Century Crofts, Inc., 1937.
– Gorer Geoffrey. The Americans. German Edit, Rowohlts Deutsche Enzyklopodie, 1956.
– Gosnell Harold F. Negro Politicians. University of Chicago Press, 1935.
– Gregory J. W.: See Burns.
– Guerin Daniel. Un Future Pour les Antilles. In les Temps modernes. Jan, Febr.. 1956,
– Gunther J. Inside Africa. Hamilton Ltd., London; 1955.
- Inside Asia. Harper and Brothers, New York and London, 1938.
- Inside Latin America. Harper and Brothers, Now York and London, 1904.

- Inside Rusia. Hamish Hamilton; London, 1958.
- Halligan Alice L. A. Community's Total War Against Pregudice. Journal of Educational Sociology; February 1943.
- Hardy G. Vue génerale de L'Histoire d'Afrique. Armand Collin Publ., Paris, 1948.
- Herring. H. A. History of Latin America from the deginning to the Present. Jonathan Cape, London; 1954.
- Hoernle R. Ref. Digest of South African affairs. Pretoria, 3/8/1956.
- Horowitz Eugene L. Development of Attitude Toward Negroes. Archives of psychology, No. 194, 1936.
- Horton C. P. Changes of Skin Color. etc. Am. J. Dermatol., 1959.
- Hughes Langston and Milton Meltzer. A pictorial History of the Negro in America. Crowm Publ. Inc., New York. 1956.
- Hurwitz J. Marginal Men of India. Indonesia 1954: 129.
- Italiaander R. Der ruhelose kontinent Econ. Verlag. Dusseldorf. 1958.
- Jones C. R. Ethnic Family Patterns: The Mexican Family in the United States. American Journal of Sociology, May 1948.
- Keesings Historisch Archief. Amsterdam.
- Keet B. B. The ethics of apartheid. South Afr. Inst, of Race Relations, Johannesburg, 1957.
- Kelsey V. Seuen Keys to Brazil. Funk and Wagnalls Company. New York 1940.

- Keppel- Jones A. Südafrika. Safari Verlag, Berlin, 1952.
- Khneberg Otto. Social Psychology. Henry Holt Publ. and Co., New York, 1955.
- Kornauser Arthur. Public Opinion and Social Class. American Journal of Sociology, January 1950.
- Kronenbrger Louis. Company Manners. A. Mentro Book, New American Library, 1955.
- Kruyer G. J. Suriname en zijn Buurlanden. J. A. Boom and Zn. PubL Meppel, 1951.
- Lamson H. D. The Eurasian in Shanghai. American Jouranl of Sociology, 1936.
- Landis J. T. and Landis M. G. Building a Successful Mariage. Prentice Hall Inc., 1948.
- Landman Michaeler. Philosophische Anthropologie. Publ. Waller de Gruter and Co., Berlin 1955.
- Landry S. O. The Cult of Equality. The Pelican Publishing Company, 1945.
- Lecomte Du Nouy. Human Destony. Publ. Signet Books. The New American Library, 1949.
- Leeuw van der G. Wegen en Grensen; de uerhouding uen religie en kunst, Paris H. J. Publ., Amsterdam. 1955.
- Lehmann Arno. Die Kunst der Jungen Kirchen. Evangelische Verlaganstate Berlin 1955.
- Lichtveld L. Suriname. Wetenschappelike Uitgeverij N.V. Amsterdam, 1957.
- Lier Rudolf van. Samenleuing in een Grensgebied. Publ. Mart. Nijhoff Den Haag, 1959.

- Lind A.W. Race Relations in World perspective. University of Hawaii press, Honolulu, Hawaii. 1955.
- Little Kenneth: See UNESCO.
- Locher Th. J. G., de vries E. en van Asbeck F.M. Baron. Achtergronden van de Huidige Wereldcrisis. Univ. Pers, Leiden. 1957.
- Locke Alain. Wisdom de Profundis: The Literature of the Negro 1949. Phylon, First Quarter, 1950.
- Loon H. Van. The Story of America. Dell Publishing Company Inc., New York.
- Maclver R. M. (ed.) Discrimination and National Welfare. Instiute for Religious and Social Studies, 1949.
- Maracis B. J. Die Kleur Krtsis en die Weste. Die goeie Hoop Uitgevers Beperk, Johannesburg, 1952.
- Marquard L. The peoples and policies of South Africa. The Cameld Press Ltd, London, 1952.
- Matett R. R.: See Burns.
- Martin L. and S. The Standarrd Guide to Mexico and The Carivvean. Funk & Wagnails. New York, 1956-1957.
- Mays Benjamin E. Segregation in Higher Education. Phylon 1949.
- Mead M. the concepts of culture and psych. approach. Psychiatry 1947: 10-7.
- Mende T. Entre la peuret L'espoir. Publ. Seuil, Paris, 1958.
- Michener J. A. The Voice of Asia. Random House Inc., U.S.A., 1951.

- Msimangu: See Roskam.
- Muhammad Zafrulla Khan. The contrubution of Islam to the solution of the World's Problem today. The Ahmadiya Movement in Islam, Publ. Washington, 1958.
- Myers Henry J. and Yochelson Leon. Color Denial in the negro psychiatry, Feb. 1948.
- Myrdal G. An American Dilemma. Harper Bros Lte., London. 1944.
- Neame C. E. Wit Afrika, Het Probleem van een Wit Volk in een Zwart Weretddeel. Wiek Op, Prugge.
- Nevins A. and Commoger H. S. Amerika N. V. Wereldbibliotheek, Amsterdam.
- Nkrumah Kwame. Towards Colonial Freedom. Guinea Press, Accra, 1947.
- Packard Vance. The Status Seekers. Longmans, Green & Co, London, 1960.
- Panikkar K. M. L'Asie et la Domination occidental. Ed. Du Seuil, Paris 1953.
- Park Robert E. Migration and the Marginal Man. American Journal of Sociology, 1925.
- The Mentality of Racial Hybrids. American Hournal of Sociology, 1930- 1936.
- Parkes James W. The Jewish Problem in the Modern World. Thornton Butterworth Ltd. 1939.
- Passarge Siegfried. Geographische Bolkerkunde. Safari-Verlag. Berlin, 1951.
- Paton A. The Land and the People of South Africa See Gunther.

– Piddington R. Introduction to Social Anthropology. Publ. Oliver and Boyd, London. 1957.

– Pierson D.: See Lind A. W.

– Pittard E. Les Races et I'Histoire. Editions Albin Michel, Paris, 1924.

– Powdermaker Hortense. The Channeling of Negro Aggression by the Cultural Process. American Journal of Sociology, May 1943.

– Putman Weale P. L. The Conflict of Color. Ref. Steddard. q. v.

– Radhakrishman. East and West: Some Reflections. George Allen and Unwin, 1954.

– Ramos Arthur. Die Negerkulturen in dem Neuen Welt. Transl. Rich Katz, Eugen Rentsch Publ. Erlenbock, Zurich.

– Reddick L.D. The Education of Negroes in States Where Separate school are not Legal. Journal of Negro Education, Vol., 16, 1947.

– Reuter E. B. Race Mixture. Me. Graw-Hill Book Compauy, 1931.

– Richmond Anth. H. The Color Problems. Penguin and Pelican Books, 1955.

– Romem J. and Wretheim W. F. A. World on the Nove-Djambatan Publ. Amsteram, 1956.

– Rose Arnold. The Negro in America. The Beacon Press, Boston, 1948.

– Roosevelt Theodore. Amerikanisme. Vincent Loosjes Publ., Haarlem, 1920.

– Rubbens R. Le colour bar au congo Beige. Publ. "Zaire" Brussels, May 1949.

– Sack Von: See Van Lier.
– Schotz. Het rassencraagstuk in Zuid Africa Uitgereik deur Kantoor van die Unie van Suid- Afrika. Staatserukkerij Pretoria. 1950.
– Schulte Nordholt J. W. Het Volk dat in duisternis Wandelt. Van Lochem Slaterus Pnbl., Arnhem, 1956.
– Schurz W. L. This New World the Givilization of Latin America G. Allen & Unwin Lte., London, 1956.
– Shapiro H. L. Migration and Enviromment. Oxford Univ. Press, 1939.
– Sherif M. and Sherif C. W. An Outline of Social Psychology, Harper Bros, New York, 1956.
– Simon Caroline K. Causes and Cure of Discrimination. New York Times Magazine, May 29- 1949.
– Simons R. D. G. Ph. Ueber Tatowierungen und Zirkum- zision; Dermatologica Karger Base, m 1948.
– Nieuwe Rotterddamse Courant 1956.
– Huidskfeur en menselijke verhoudingen. Elsvier, Amsterdam, 1958.
– Enkele principes van de primitive geneeskunde in de tropen en het zgn. bijgeloofin de lepra in de Atlantische negerzones Vox Guianae. Publ Nyhoff, The Hague and Djambatan, Amsterdam, 1959.
– Ueber Aberglanben und Lepra i.d. atlant. Negerzonen. Der Hautarzt. Munich, 1960.
– Simpson George Eaton and J. Milton Yinger. Racial and Cultural Minorities: an Analysis of Prejudice and Discrimination. Harper Bros. Publ., New York.
– Sithhole Ndabaningi. African Nationalism. Oxford Univ. Press 1960.

- Spaak Paul Henri Current Topics. British Atlantic Committee. London 1958.
- Spero S.D. And Harris A. L. The Black Worker. Columbia University Press, 1931.
- Stoddard Lothropo. The Rising Thde of Color Against White World Supremacy. Charles Scribner and Sons New York, 1920.
- Sweet man J. W. Islam and Christian theology 1 + 11, Lutterworth Press, London. 1947.
- Stonequist Everett V. The Marginal Man: A Study in Personality and Culture Cenflict. The American Journal of Sociology, July, 1935.
- Strauss H. J. Die Beskawings en politieke status vandie Naturel in Suid Afrika. Suid Afrikaanse Calvinistische Untgewers Maatschappij Beperk, Bloemfontein, 1950.
- Suasso de Lima de Prado P. J. Luipaardmannen en slangendansers. Scheltens and Giltay, Publ. Amsterdam, 1957.
- Suriname (Het Ambacht in Suriname) Gouv. Resolutie Gouvern., Suriname; 1912.
- Sweetman J. W. Islam and Christian Theology. Lutterworth Press, London, 1956.
- Tocqueville A. de Die Demokratie in Amerika. Fischer Bucherei Frankfurt M., Hamburg, 1956.
- Toit J. D. du Die Afrikaanse Rassebleid en die Skrif. Pro Rege Pers Beperk, Potchef- festroom 1954.
- Tomlinson Report; South African Affairs Digest of Appril 1956.
- Touré Sekou. La Guiné et j'emancipation africaine. Presse africaine Paris, 1959.

- Toynbee Arnold J. A study of history Vol 1 + 8, Oxford Univ. Press. 1939- 1954.
- Christianity among the religions of the world Oxford Univ, Press 1950.
- UNESCO. The Race Concept. Results of an Inquiry. UNESCO. Publ., Parsi, 1952.
- Vaillant G. C. The Aztecs of Maxico. Richard Clay & Company Ltd., Bungay. Suffolk, 1950.
- Vanmaele G. De integrate van de politieke instelingen in de franse Overzes gebied- en, Kongo overzee Uitg. Sikkel, Antwerpen, 57.
- Van't Veer Paul. Vriend en Vijand in de Kolonie. Arviederspers., Amsterdam, 1956.
- Visser't Hooft W. A. The Ecumenical Movement and The Racial Problem UNESCO se ies on The Race Quetion etc., 1954.
- Vrijman L. Slacenhaiers en Slavenhandel. P. N. van Kampen & Zn, Amsterdam, 1943.
- Wagley Ch. and Harris M. Minorities in the new world Columbia Univ. Press, Now York, 1958.
- Wallbank T. W. A Short History of India and Pakistan. A Mentor Book, 1958.
- Warner W. L. and Davis Allison W. A. Comparative Study of American Caste in Thompson's (ed.) Race Relations and the Race Problem. Duke University Press, 1939.
- Wells A. W. Southern Africa To-day and yestrday. J. M. Dent & Sons Publ., London.
- Williams Eric, The Negro in the Caribbean. Publ. London, 1942/45.

– Wit, De Hendrik. Suriname en de Nederlandse Antillen. W. van Hoeve the Hague 1951.

– Wright R. Zwarte Kracht. Sijthoff Publ., Leiden, 1956. The Colour Bar. Publ Van Hoeve The Hagve, 1957.

– Zeligs R. and Hendrickons G. Racial Attitudes of 200 Sixth-Grade Children. Socology and Social Research; Sept-Oct., 1933.

– Handbook of Race Relations in South Africa. S. A. Institute of Race Relation, Johannesburg.

– Ibero- Amerika. Ein Hankbuch. Uebersee- Verlag, Hamburg 1954.

– Our Rights as Human Beings. Publ. The United Nations, 1955.

الفهرس